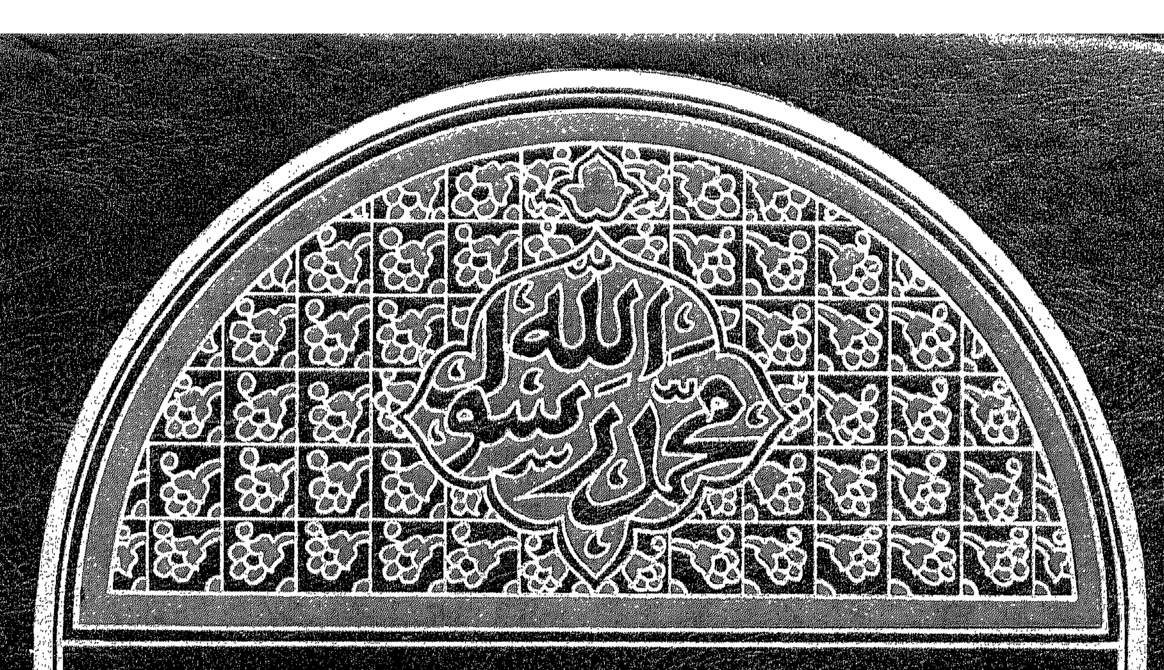


الأيام الحسينية

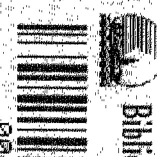
تأليف

العالم الرباني الشيخ جعفر التستري

(قدس سره)

ترجمة

إبراهيم رفاعة





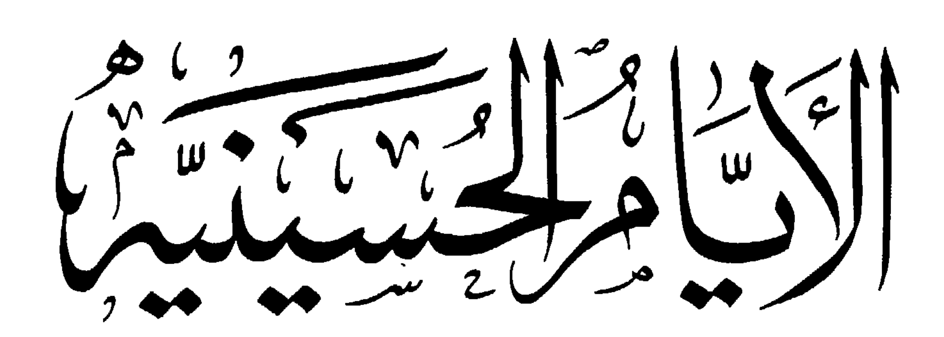






الأيام الحسينية





الأيام الحسينية

تأليف

العالم الربّاني الشيخ جعفر التستري

(قدس سره)

ترجمه

إبراهيم رفاعه

دار المرتضى

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار المرتضى - طبع ـ نشر ـ توزيع

لبنان ـ بيروت ـ الغبيري ـ شارع الربيع ـ ص.ب: ٢٥/١٥٥ الغبيري

بسم الله الرحمن الرحيم

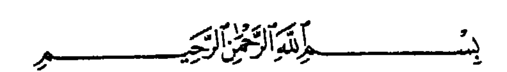


السَّلامُ عَلى الحُسين

وعَلى عليّ بن الحُسين

وعَلى أولاد الحُسين

وعَلى أصحاب الحُسين


بسم الله الرحمن الرحيم


إنما يخشى الله من عباده العلماء

المقدمة

منذ بضع سنين تعرّفت علىٰ الشيخ جعفر التُّسْتَريّ (رضـوان الله عليه) من خـلال كتـابـه « الخصـائص الحسينيّـة » أو« خصـائص الحسين » (عليـه السلام) .

بدا في وقتها عالِماً له مزايا خاصّـة ، هي في الواقـع هبة لـه من هبات الله (جلّ جلاله) . إنّ المرء لَيلتقي ـ وهو يقرأ كتاب « الخصائص » ـ بمعـرفة « حُسَيْنيّة » دقيقة ، وبحرارة إيمانيّة صادقة ، وبغيرة علىٰ الحقّ وأهـل الحقّ ، وبتواصل قويّ مع « يوم الحسين » (عليه السلام) في كربلاء . كلّ هذا بتركيز شديد يكاد يَقْرُب من التلميح والإيماء .

لقـد فازت المكتبـة العربيّـة بهذا السِّفْـر النفيس الذي خـطّه قلم مؤلّفـه عربيّاً . . وهو الرجل الآتي من أعماق بلدة « تُسْتَر » أو « شُوشْتَـر »القابعـة في الأراضي الجنوبيّة الغـربيّة من البـلاد الفارسيّـة . ويودّ المـرء لو يفـوز القارىء العربيّ اللسان بمزيد من أمثال هذا السِّفر الذي يعمّق في القلب والعقل المسلم مـا يمكنه إدراكـه من المعاني المـوصولـة بسيّد الشهـداء الإمـام أبي عبـد الله الحسين (عليـه السلام) . إنّ القـارىء المسلم في البلدان الناطقـة بالعـربيّـة ليفتقد ـ إلىٰ حدّ واضح ـ التعايش مع القضيّة العاشورائيّة المقدّسة ، من خلال

هذا النمط من الكتابة المربّية الكاشفة ، ويودّ لو يحظىٰ من مثلها بالمزيد .

من أجل هذا . . كان يناغي القلب طموح في العثور علىٰ كتاب آخر له هذه السِّمة « الحسينيّة » الخالصة ، ليضاف بعد ترجمته إلىٰ كتاب « الخصائص » ويكون من مشربه . . بعيداً عن المألوف من المنحىٰ التاريخيّ الذي طالما كرّر الحديث ـ في صدد الثورة الحسينية ـ عن الدوافع والآثار الاجتماعيّة .

وقد ظلّ هذا الترقّب للكتاب المنشود أشهراً يتعمق معها الاحساس بالحاجة إليه ، يدفعه الحقّ وتغذّيه رغبة في الاستزادة من التعرف والتعريف بشيء من أسرار كربلاء .

وفي عصر أحد أيام شهر صفر عام (١٤١٢هـ) حَدَث ـ بلطف الله تعالىٰ ـ أن التقيت به علىٰ غير ميعاد . كان يتخذ مكانه علىٰ رفّ خلفيّ في إحدىٰ المكتبات . لم يكن ظاهره ولا عنوانه بالذي يُغري أن تمتدّ إليه يد . كان مكتوباً علىٰ صفحة غلافه ـ بخطّ كبير : « مواعظ » ! ورغم هذا الظاهر الذي لا يثير الاهتمام تناولته لقراءة عنوان الكتاب كاملاً ، ولقراءة اسم مؤلّفه . كان له عنوان صغير أيضاً : « مجالس الوعظ والبكاء في أيّام عاشوراء » . وكان اسم المؤلّف الشيخ جعفر التُّسْتَريّ !

وتصفّحتُ الكتاب بعجلة من حَظِيَ ـ علىٰ حين غرّة ـ بشيء قيّم . . وإذا موضوعه « يوم » الحسين (عليه السلام) . كان مجالس شفهيّة ألقاها الشيخ في أيّام محرّم سنة (١٢٩٨ هـ) في العراق . وقد تولّىٰ أحد تلامذته تحرير هذه المجالس علىٰ الورق . وكان أنْ تَبدّىٰ في الكتاب من المزايا ما يضيف إلى القارىء شيئاً جديداً ، ويجعله إزاء صورة من الخطابة الحسينيّة ذات تميّز في التأثير . وكان من النافع ـ زيادة في الجلاء ـ أن يُقَدّم بين يَدَي الكتاب بمقدّمة فيها تعريف ـ ولو سريعاً ـ بالكتاب وبصاحب الكتاب .

* * *

ملامح السِّيرة الشخصيّة

كثيرون هم الذين يشدّون الرِّحال عن أوطانهم . . تلقاء المدن العلميّة المقدّسة في العراق ، فيُعانون من الاغتراب ، ويقاسون من شظف العيش ؛ تصبّراً علىٰ الطموح الدينيّ في ابتغاء المعرفة الاسلاميّة من المنابع والأصول . وكان الشابّ « جعفر » واحداً من هؤلاء العصاميّين الذين تموج صدورهم بالحنين إلىٰ الإمتلاء بالايمان والمعرفة للتسلّك في صراط الدين الحقّ .

وكان جعفر ـ وعُرِف فيما بعد بـ « الشيخ جعفر » ـ قد فتح عينيه علىٰ هذه الدنيا سنة (١٢٣٠هـ) في مدينة آبائه وأجداده « تُسْتَر » ـ ويقال لها شُوشْتَر ـ التي أنجبت طائفة من خيرة العلماء من طراز الشيخ مرتضىٰ الأنصاريّ (رضوان الله تعالىٰ عليه) . ‹

وفي أوّل حياته صحب والده الشيخ حسين الواعظ في رحلته إلىٰ العراق . . فأقام بادىء ذي بَدْء في مدينة الكاظميّة علىٰ نهر دجلة ببغداد : المركز العلميّ بعد مدينة النجف الأشرف في ظهر الكوفة على متن الفرات.

حمل جعفر معه « أصالته » العُلَمائيّة الوشيجة الصلاة بحياة الوعظ والتبليغ ؛ إذ هو يتحدّر من جدّه الأعلىٰ الشيخ علي بن حسين النجّار الذي كان من صلحاء عصره ومن عُبّاد القرن الهجريّ الحادي عشر . . والذي أنجب ثلاثة أبناء كلّهم من العلماء ، هم : المُلاّ مقصود عليّ (ت ١١٣٦ هـ) ، والملاّ محمّد (ت ١١٤١ هـ) المعروف بصلابته في الحقّ وألّف العديد من المؤلّفات منها « مَجْمَع التفاسير »[1] ، والملاّ عليّ النجّار (ت ١١٦٨ هـ) . وكان الشيخ حسين الواعظ والد الشيخ جعفر أحدَ أحفاد الملاّ عليّ النجّار هذا . . المعروف بِحُسْن سيرته وسريرته ، وله مؤلّفات منها « تفسير سورة يوسف » .

---

(١) كان للملاّ محمد النجار ولد اسمه (أحمد) هاجر إلى منطقة (مَحَلاّت) ، وعُرف أبناؤه بلقب (المحلاّتي) ، ومنهم الأسرة العلميّة المعروفة .

بهذه الأصالة ـ وبرفقة والده ـ عكف الشيخ جعفر علىٰ الدرس العلميّ في مدينة الكاظميّة أوّلاً ، ثمّ تحوّل إلى مدينة النجف الحاضرة العلميّة العريقة الكبرىٰ[1] . وفي المدينتين درس على كبار علماء عصره ، من مثل الشيخ اسماعيل بن الشيخ أسد الله التُسْتَريّ الكاظميّ ، والشيخ محمّد حسن آل ياسين الكاظميّ الفقيه الشهير ، وصار قرينه ورفيقاً له في الحياة . كما قرأ أيضاً علىٰ الشيخ عبد النبيّ الكاظميّ .

وفي النجف تتلمذ علىٰ ثلّة من أجلّاء العلماء ، منهم الشيخ الأنصاريّ ، والشيخ محمّد حسن النجفيّ مؤلّف الموسوعة الفقهيّة الكبيرة « جواهر الكلام » ، والشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء وعلىٰ أخيه الشيخ حسن كاشف الغطاء ، والشيخ راضي النجفيّ . . وعلىٰ الشيخ شريف العلماء المازندرانيّ .

وخلال حياته في النجف رحل مرّة إلىٰ مسقط رأسه على أثر وباء الطاعون الذي حلّ بالعراق عام (١٢٤٦ هـ) ، وعاد بعدها إلىٰ العراق .

وفي عام (١٢٥٥ هـ) عاد إلىٰ « تُسْتَر » ليمارس نشاطه العلميّ الاجتماعيّ ، وله من العمر يومئذ خمس وعشرون سنة ، بعد أن بلغ في دراسته بالنجف درجة « الاجتهاد » . وفي « تُسْتر » كان مرجعاً للناس في الإفتاء وفيما يهمّهم من القضايا . هنالك بنىٰ « حسينيّة » ، كانت مركزاً لوعظه ومقرّاً للتبليغ وإمامة الناس في صلاة الجماعة .

وقد نبغ الشيخ جعفر وقتئذٍ في الوعظ علىٰ نحو نَدَر نظيره ، وكان له أثر كبير في الهداية والجذب إلى الحقّ (جلّ جلاله) . وهنالك أيضاً ألّف رسالته الفقهيّة العمليّة « منهج الرّشاد » التي افتتحها بايجاز عن أصول الدين . وقد لفتت هذه الرسالة اليها ـ في ايران ـ نظر فقهاء كبار من عيار الشيخ ضياء العراقيّ

(١) يمتدّ التاريخ العلميّ لمدينة النجف إلىٰ أيّام الشيخ محمّد بن الحسن الطوسيّ (ت ٤٦٠ هـ) الذي انتقل اليها بدرسه العلميّ من بغداد ، بعد فتنة أحرقت فيها مكتبته وكرسيّ تدريسه .

والشيخ عبد الكريم الحائريّ .

ويبدو أنّ إقامته في « تُسْتَر » قد استغرقت سنوات من عمره مديدة . . إلىٰ أن هاجر منها مُغْضَباً . . احتجاجاً على فعلة سلطويّة فعلها والي المنطقة حشمت الدولة أحد أقرباء الملك ناصر الدين شاه[1] ، فتوجّه بأهله إلى النجف فاختارها للمقام فيها عالماً كبيراً ومدرّساً وواعظاً منبرياً متميّزاً ذائع الصِّيت . . وكان يحضر مجلسه كثير من العلماء والفضلاء وطلبة العلوم الاسلاميّة ، إلى جوار عامّة الناس .

حتّىٰ إذا كانت سنة (١٣٠٢ هـ) ـ أي قبل وفاته بقليل ـ سافر إلى إيران ، قاصداً مدينة خراسان للتشرّف بزيارة المرقد الطاهر للإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) .

وفي الطريقْ اضطرّ إلىٰ المكوث في طهران ، بسبب اقتراب حلول شهر رمضان ، فكان أن آسْتُقْبِل استقبالاً رسميّاً وعُلَمائيّاً وشعبياً كبيراً . . ونزل ضيفاً على الشيخ المُلاّ علي الكَني ، فكان يقيم الصّلاة في مسجد « مَرْوِيّ » .

وخلال هذه المدّة أبى الشيخ جعفر إباءً شديداً أن يزور الملك الذي أبدىٰ رغبة قويّة في هذه الزيارة . . ممّا اضطرّ ناصر الدين شاه أن يمضي بنفسه إلى الشيخ ، يزوره ويتقرّب اليه . وفي اللقاء حذّره الشيخ من التراخي إزاء مظاهر الحياة الغربيّة الفاسدة التي كانت قد بدأت تغزو حياة المسلمين في طهران . . فاقترح علىٰ الشيخ أن يؤمّ الصلاة في مسجد « سِبَهْسالار » أعظم مساجد طهران الذي كان قد تمّ تشييده حديثاً ، فكان الشيخ جعفر التُّسْتَريّ أوّل من أقام صلاة الجماعة فيه . وكان يحضر صلاته ما يقرب من أربعين ألفاً، من مختلف فئات

---

(١) كانت حسينيّة الشيخ في شوشتر ملجأ لأصحاب الحاجات وملاذاً لأهل الظُّلامات . وقد حدث يوماً أنْ لاذ بالحسينيّة أحد المطلوبين من قِبَل السلطة . لكنّ الوالي أمر باخراج الرجل من الحسينيّة بالقوّة ، ممّا أثار غضب الشيخ ، فأمر باغلاق الحسينيّة ، وغادر شوشتر . ولم تنفع الوساطات التي توسّط بها الوالي لاقناع الشيخ بالعودة والرجوع ويبدو أن هجرته إلى النجف هذه كانت سنة (١٢٨٧ هـ) أو (١٢٩١هـ) .

الناس . . فكان يرتقي المنبر واعظاً منذراً من عاقبة التخاذل أمام مفاسد الحياة الغربيّة ، منادياً بالاستمساك بالدين الحقّ .

وفي غُرّة شوّال عام (١٣٠٢ هـ) سافر الشيخ إلىٰ خراسان . وهنالك مَرِض خلال الثلاثين يوماً التي أمضاها في جوار مشهد الإمام الرِّضا (عليه السلام) . لكنّ مرضه لم يقعد به عن إمامة الصلاة وعن ارتقاء المنبر للوعظ والتذكير .

ثمّ عزم علىٰ العودة إلى العراق مارّاً بطهران ، حيث طلب منه ناصر الدين شاه القاجاريّ الإقامة معه في هذه العاصمة . . فأظهر الشيخ رغبة مشوقة لمجاورة مشهد أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في النجف الأشرف ، قائلاً له :

« أودّ لو تُدْفَن قبضة العِظام هذه في التراب ، إلىٰ جوار مرقد أبي تراب » يريد مرقد الإمام عليّ (عليه السلام)» .

وكان ممّا قاله الشيخ لمّا سأله الملك عن سفرته إلى مشهد ، وعن زيارته مرقد الإمام الرضا(عليه السلام) :

« كنتُ أتمنّىٰ أن تكون زيارتي مثل زيارة العرب القرويّين في العراق ؛ إذ يحملون أرواحهم علىٰ الأكفّ ، ويأتون مُشاة حُفاة من كلّ فجّ عميق . . متجاوزين الصعاب والعقبات ، ليزوروا العَتَبات المقدّسة للأئمة في العراق . زادُهم السَّويق ، ورفيقهم التوفيق . لكنّ مَرَضي حَرَمني من هذا التوفيق ، فكنت مضطرّاً لأنْ أزور محمولاً علىٰ محفّة المرض » .

وأضاف الشيخ :

« يُحكىٰ أنّ أحد هؤلاء القرويين قد مضىٰ لزيارة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) . ولمّا دخل الحرم المنوَّر ، وقف أمام الضريح يخاطب الإمام أمير المؤمنين ، ويقول : جئتُ لزيارتك من مكان بعيد . قطعتُ الصحارىٰ والجبال حتىٰ بلغتُ حرمك الأنور .

وإنّي لا أدري أين تكون أنت يوم القيامة ؟ وكيف أستطيع أنْ ألقاك هناك ؟ أمّا أنا فقد جئتك الآن . . وعليك أنت أن تبحث عندئذٍ عن عبدك المحبّ ، حتىٰ ألقاك ، فتنجيّني من الصِّعاب والأهوال » .

في طهران انهالت على الشيخ من رجال الدولة هدايا قيّمة وفيرة ، لكنّه رفضها كلّها ولم يقبل منها شيئاً . وكان فيما أهدته أخت الملك : سَجّادة نفيسة ومسبحة ثمينة وعدّة أكياس من الذهب ، لكنّ الشيخ ما أخذ منها إلاّ قطعة من « التُّربة الحسينيّة » كانت مع السجّادة . . وردّ الباقي كلّه .

وخلال مكوثه القصير في طهران لم ينقطع الشيخ ـ علىٰ ما يعاني من الداء ـ عن صعود منبر الخطابة في الأيّام العشرة الأولىٰ من المحرّم وبعض أيّام العشرة الثانية . . للإرشاد ولذكر وقائع فاجعة الطفّ الدامية ومصائب الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) ؛ إذ كان يجد في الحديث عن رزايا كربلاء وعن أسرارها تعبيراً عن جوهر دينيّ أصيل لا بدّ للناس أن يرتفعوا اليه ويتواصلوا معه باستمرار .

ومهما يكن . . فقد ارتحل الشيخ جعفر ـ علىٰ ضعفه ووهن بدنه ـ تلقاء النجف الأشرف . وفي العشرين من شهر صفر عام ١٣٠٣ هـ (ذكرىٰ أربعين استشهاد الإمام الحسين عليه السلام) ، أو في الثامن والعشرين منه (ذكرىٰ رحيل رسول الله صلّى الله عليه وآله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ) . . بلغ في الطريق منطقة « كِرِنْد » أو « إكرِنْت » في غرب إيران . وهنالك . . نزل به القضاء وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها ، ولسانه لا يكفّ عن ذكر الله ، وكان له في حينها من العمر ثلاث وسبعون سنة .

وما أنْ حلّ وقت الغروب ـ بعد وفاته بساعات قليلة ـ حتىٰ وقعت واقعة سماويّة أدهشت الناس في إيران والعراق ، وأصابتهم بالفزع . إذ حدث أن « تناثرت » نجوم السماء . . فكانت الشُّهُب تَهْوي في السماء علىٰ شكل مطر غزير دام ثلاثين دقيقة ، حتّىٰ ظنّ الناس أنّها ستقع منهم علىٰ الرؤوس .

وكان لنبأ وفاة الشيخ جعفر التُّسْتَريّ (قدّس سرّه) أثره الكبير عُلَمائياً

وشعبيّاً في العراق وإيران . ورثاه كبار العلماء ومشاهير الشعراء . منهم شاعر العراق يومذاك السيّد جعفر الحِلّيّ (ت ١٣١٥ هـ) ، في قصيدة يذكر فيها تناثر النجوم :

أوَما رأيتَ الشُّهْبَ . . كيف تهافَتَتْ
والأرض أفزع أهلَها زِلْزالُها ؟!
فكأنّما الخَضْرا تَزَلْزَلَ قُطْبُها
وكأنّما الغَبْرا تُسِفْنَ جِبالُها !

حُمِل جثمانه الطاهر إلىٰ النجف موضع آماله ، ودفن ـ بعد تشييع مهيب ـ إلىٰ جوار سيّده الإمام أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) . . في الصحن الشريف ، في أوّل حجرة من السّاباط ، ممّا يلي « تَكْية البَكْتاشيّة » . . علىٰ يمين الداخل .

* * *

مظاهر شخصيّته

لشخصيّة الشيخ جعفر التُّستريّ (رضوان الله تعالىٰ عليه) مظاهر عديدة تجمعت فيه . فهو فقيه من الطراز الأوّل ، ومدرّس تتلمذ عليه العديدون[1] ، ومصلح من المصلحين ، وخطيب بارع يهيمن في نطقه علىٰ الجماهير ، وأخلاقيّ ذو قوة في الدين وصلابة في تعظيم شعائر الدين ، ومُرَبٍّ لكثير من العلماء والمتعلّمين ، ومؤلّف تشهد مؤلّفاته بوضوح المنهج وبالعمق والصدق . وهو إلى جوار هذا كلّه رجل « حسيني » العقل والقلب والضمير ، تعيش « قضيّة كربلاء » من حياته في الصّميم .

إنّ الحديث ـ مُفَصّلاً ـ عن هذا الرجل الكبير ممّا يحتاج إلى بحث مستقلّ يقتضي قراءة شاملة لسيرته ولمؤلّفاته ولموقعه في عصره . بَيْد أننا نشير هنا ـ

(١) من تلاميذه : الميرزا محمد الهَمَداني ، وسيّد عبد الصمد الجزائريّ ، والشيخ علي بن الشيخ رضا كاشف الغطاء ، والميرزا ابراهيم والملا أحمد ولدا الملاّ محمد علي المحلاتيّ .

إشـارة ـ إلىٰ ملامـح ربّما تنبىء عن شيء من مقـام الشيـخ وتومي إلى بعض أثره .

الرجل الفقيه

كتب الشيخ في إجازة للميرزا محمّد الهَمَدانيّ :

ووصيتي إليه : أدام الله توفيقه سلوك الاحتياط وعدمُ التسرّع في الفتوىٰ ؛ فإنّ الأمر صَعْب مُسْتَصْعَب . وعدم الحكم بمقتضىٰ القواعـد والعُمومـات قبل التتبّع التامّ المُبْرِىء للذمّة بينه وبين الله (تعالىٰ) . يقـول بالنسبـة إلىٰ أشرف مخلوقاته : « وَلَو تَقَوّلَ علينا بعضَ الأقاويل لأخَذْنا منه بـاليَمين ثُمّ لَقَطْعنـا منه الوتين »[1] .

بل أقول : إنه لا يُكْتَفىٰ في الحكم بملاحظة القواعد والعُمومات إلّا بعد ملاحظة خصوصيّا ما وَرَد في جميع أبواب الفقه ؛ فلقد أوصاني أُستاذي الأعظم صاحب « جواهر الكلام » في هذا المقام . . فقال : « يا ولدي ، رُبَّ حكم من أحكام الطهارة والصلاة قد ظهر لي من ملاحظة روايات الحدود والدِّيّاتِ » ، « ولا يُنبّئك مِثْلُ خبير » .

---

(١) يذكّرنا هذا بموقف العالم الجليل جمال السالكين السيّد عليّ بن طاووس (رضوانُ الله عليه) من الفتوىٰ والافتاء . ولعلّ الشيخ التستري كان في هذا الموضع ينظر إلىٰ موقف السيّد ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) حينما فسّر السيّد امتناعه عن التأليف في الفقه ، رغم كثرة ما ألّف في سواه . يقول في كتابه (كشف المحجّة ص١٠٩) يوصي ولده : « وأراد بعض شيـوخي أنني أدرّس وأعلّم الناس وأفتيهم وأسلك سبيـل الرؤوسـاء المتقدّمين ، فوجدت الله (جلّ جلاله) يقول في القرآن الشريف لجدّك محمد (صلّىٰ الله عليه وآله) صاحب المقام المُنيف : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثمّ لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ . فرأيت أنّ هذا تهديداً من ربّ العالمين لأعـزّ عليه من الأولّين والآخـرين أن يقول عليـه بعض الأقاويـل ، فكـرهت وخفتُ من الدخول في الفتوىٰ ، حذراً أن يكون فيها تقوّل عليه . . . » .

الرّجل الواعظ

وكتب الحاج الملاّ عليّ الخِياباني :

« قال أستاذي الأعظم واستنادي الأفخم المرحوم الحاج الميرزا أسد الله المجتهد التبريزيّ » (طاب مضجعه) : إنّ أثر الأنفاس القدسيّة للحاج الشيخ جعفر الشوشتريّ وفعل مواعظه كان من القوة بحيث ينخرط العلماء والمجتهدون والمستمعون ـ خلال مجلسه ـ في حالة من البكاء والنحيب . . كما لو كانوا في مجلس عزاء .

وفي أحد الأيّام كان يقرأ الآية من سورة (ياسين) : ﴿ **وامتازوا اليوم أيّها المجرمون** ﴾ ، فارتفعت أصوات الحاضرين بالصراخ والعويل .

ويقول حفيده الشيخ محمد تقي التّسْتريّ :

« سمعتُ أبي الشيخ محمد كاظم بن محمد علي بن جعفر الشوشتريّ . . يقول : كان الرسميّون العثمانيّون يحضرون مجالس الشيخ في الكاظميّة وكربلاء والنجف . وما أن يستهلّ الشيخ مجلسه بتلاوة آيات من القرآن الكريم حتىٰ تأخذهم حالة من البكاء ، ويقولون : كأننا لم نسمع هذه الآيات إلاّ الساعة ، وكأنّ جبرئيل قد نزل بها الآن لأوّل مرّة ! ويقول أبي : كان علاء الدولة القاجاريّ يقول : سمعت مجالس العزاء التي كان يقيمها الشيخ خلال سفره في أخريات حياته . . فكنت أرىٰ دموع عينية لا تنضب » .

الرّجل التّقيّ

يقول الملاّ علي الخياباني :

« يروي أحد العلماء عن أحد أحفاد الشيخ أنّه قال :

في سفرته إلى البقعة الرضويّة المقدّسة (علىٰ ساكنها آلاف التحيّة والثناء) قيل لأحد أعيان الدولة : إنّ الشيخ لم يأكل طيلة حياته لقمة واحدة من الحرام .

استبعد الرجل هذه القضيّة ، ومال إلى اثبات كذبها . . فأمر أحد خدمه

أن يسرق شاة ، ثمّ يدعو الشيخ إلى طعام ، فيأكل من لحمها .

وسرق الخادم الشاة ، ودعي الشيخ إلى تناول الغداء . . فحضر . وقُبَيْل الظهر ارتفع من فِناء الدار صوت رجل يصيح : سرقوا شاتي ، وجاءوا بي إلىٰ هنا ! الشاة كنت أعددتُها لوليمة أدعو اليها الشيخ ! أدهشت هذه الواقعة المضيِّف ، فلم يجد بُدّاً من إخبار الشيخ بما حدث . وسُرّ صاحب الشاة حين علم بهذه الواقعة العجيبة » .

وكتب الميرزا قائم مقام الفراهانيّ :

« . . . إنّ خطابات الشيخ لها ـ في الحقيقة ـ أثر كبير . من يحضر مجلسه يجده نوراً مجسَّداً . وقد حدث أن أُوصِلَ إلىٰ الشيخ في طهران وخراسان اكثر من (٣٠) الف تومان من سهم الإمام عليه السلام (وهو مبلغ كبير جدّاً) ، لكنّه لم يأخذ منه ولا قيراطاً »[١] .

الرّجل المؤلّف

ترك الشيخ جعفر الشوشتري جملة من المؤلّفات ، منها :

ـ منهج الرشاد . وهو رسالة عملية في الفقه . تُرْجمت إلى العربيّة ، وظهر مختصر له .

ـ رسالة في أصول الدين . لعلّها هي ما كتبه مقدّمة لرسالته العمليّة .

ـ روضات الجنّات . في القرآن الكريم ، في عدة أجزاء .

ـ الخصائص الحسينيّة . كتبه بالعربيّة . يقول عنه الميرزا محمد

---

(١) من المصادر التي تحدّثت عن سيرة الشيخ التستري (رحمة الله عليه) :
ـ أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين العامليّ .
ـ تذكرة شوشتر : السيد عبد الله الجزائري .
ـ تكملة آمَل الآمل : السيد حسن الصدر .
ـ علماء معاصرين : الملاّ علي الخياباني التبريزي :
ـ غنيمة السفر:الميرزا محمّد الهمدانيّ .

الهمـدانيّ : « له كتـاب في المراثي فيـه فوائـد سنيّة ، سمّـاه بـ (الخصـائص الحسينيّة) . لم نَرَ من سلك منهاجه » . وقد ترجم الكتاب إلىٰ الفارسية ست ترجمات .

ـ فوائد المشاهد . فيه تقريـر (٥٩) من مجالس وعـظه التي كان يلقيهـا أواخر حياته في كربلاء والنجف والكاظمين .

ـ كتاب في مجالس الوعظ . وهو هذا الكتاب . وسيأتي الكلام عليه في هذه المقدمة إن شاء الله .

الرّجل الحُسَيْنيّ

العناية بالمعاني الحسينيّة ـ والتذكير بهذه المعاني ـ قديمة في سيرة الشيخ الشُّوشتري . . إذ هي تمتدّ إلىٰ أيام شبيبته . وقد اتّخذت هذه العناية طـابعها المنبريّ « الرسميّ » لدىٰ عودتـه من العراق إلى بلدته « شُوشتَـر » أو « تُسْتر » لمّا أتمّ دراسته الفقهيّة وعزم علىٰ أن ينذر قومه إذ رجع اليهم .

وكـان منبره ، منـذ أيّامـه الأولىٰ ، يقوم علىٰ التعـريف بمعـاني القـرآن وأحاديث المعصومين (عليهم السلام) ، ثمّ يختتم مجلسه بالتذكير بفصل من أحـزان واقعة الـطفّ . . تتخلّل هـذه كلّه نبـرة واعـظة وإقبـال علىٰ التـوعيـة والإرشاد . بَيْد أنّ مشكلة كانت تواجه الشيخ الشابّ العائد آنفاً إلىٰ بلدتـه في تحقيق مـا يطمـح إليه من التبليـغ والتبصير ؛ إذ لم تكن لـه قدرة تُسْعفـه على الخطابة والإرتجال ، فكان مضطرّاً إلىٰ قراءة المعـاني القرآنيّـة والحديثيّـة من خلال كتاب يحمله بيده علىٰ المنبر . وحتىٰ عندما كـان يصعد المنبـر في أيّام المحرّم ليحكي للناس عن مآسي عاشوراء . . فإنّه كان يقرأ من كتاب « روضة الشهداء » .

الشيـخ نفسه حكىٰ هـذه المعانـاة التي كـانت تضـايقـه في ليـالي شهـر رمضان ، وفي أيّام العزاء ، وحكىٰ كيف تحوّل ـ بلطف خاصّ من الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) ـ إلىٰ خطيب مقتدر ، تفتّح أمام بصيرته غير قليـل من أسرار يوم الحسين (صلوات الله عليه) . يقول الشيخ التّستريّ (كمـا جاء في

كتاب « دار السلام » للمحدِّث الميرزا حسين النوريّ) :

« لمّا فرغت من تحصيل العلوم الدينيّة في المشهد الغَرَويّ [نسبةً إلىٰ الغريّ من أرض النجف] ، وآنَ أوان النشر ووجوب الإنذار . . رجعت إلىٰ وطني ، وقمت بأداء ما كان عليّ من هداية الناس علىٰ تفاوت مراتبهم . ولعدم تضلّعي بالآثار المتعلّقة بالمواعظ والمصائب . . كنت مكتفياً بأخذ (تفسير الصافي) بيدي علىٰ المنبر والقراءة منه في شهر رمضان والجُمعات ، و (روضة الشهداء) للمولىٰ حسين الكاشفيّ في أيّام عاشوراء . ولم أكن ممّن يمكنه الإنذار والإبكاء بما أودعه في صدره . إلىٰ أن مضىٰ عليّ عام ، وقَرُب شهر محرّم الحرام ، فقلت في نفسي ليلة :

ـ إلى متىٰ أكون صُحُفياً [أعتمد علىٰ صحائف الكتب] لا أفارق الكتاب ؟! فقمت أتفكّر في الاستغناء عنه والاستقلال في الخطاب . وسرّحت بريد فكري في أطراف هذا المقام . إلى أن سئمت منه وأخذني المنام . فرأيت كأنّي بأرض كربلاء في أيّام نزول المواكب الحسينيّة فيها ، وخيمهم مضروبة ، وعساكر الأعداء في تجاهم . . كما جاء في الرواية .

فدخلت علىٰ فسطاط سيّد الأنام أبي عبد الله (عليه السلام) » ، فسلّمت عليه . فقرّبني وأدناني ، وقال (عليه السلام) لحبيب بن مظاهر : إنّ فلاناً (وأشار إليّ) ضيفنا . أمّا الماء فلا يوجد عندنا منه شيء ، وإنّما يوجد عندنا دقيق وسمن ، فقم واصنعْ له منهما طعاماً ، وأحضره لديه . فقام وصنع منه شيئاً ووضعه عندي ، وكان معه ملعقة ، فأكلت منه لُقَيْمات . . وانتبهت .

وإذا أنا أهتدي إلىٰ دقائق واشارات في المصائب ولطائف وكنايات في آثار الأطايب ما لم يسبقني أحدٌ ، وزاد كلّ يوم . . إلىٰ أن أتىٰ شهر الصيام ، وبلغت في مقام الوعظ والبيان غاية المرام » .

وقد أثمرت هذه المجالس الحسينيّة وما كان يفاض عليه فيها وفي غيرها من المعاني الخاصّة أنْ ألّف كتاباً مستقلاً في المعاني والخصائص التي تفرّد بها الإمام سيد الشهداء (عليه السلام) ، فكان كتاب « الخصائص الحسينيّة »

الذي يُعَدّ من خيرة ما كُتب في الموضوع[1] .

إنّ مجالس الشيخ وخطاباته في التعريف والتذكير لا تخلو ـ علىٰ نحوٍ عامّ ـ من الحديث عن كربلاء . . سواء أكان بأسلوب الإشارة أو بأسلوب السَّرْد . وقد كان بعض تلاميذه يدوّن تحت منبره كلام الشيخ الأستاذ في هذه المواعظ والخطابات ، فوصل إلينا من هذه المدوّنات كتابان : أحدهما كبير ، وهو « فوائد المشاهد » . والآخر صغير ، وهو هذا الكتاب الذي امتاز بتخصصه في ذكر تفصيلات مُفجعة من رزايا الطفّ .

***

هذا الكتاب

لهذا الكتاب ـ علىٰ سبيل الإيجاز ـ ملامح تميّزه وتُفْرِده من بين العديد من الكتب التي أُلّفتْ ، قديماً وحديثاً ، لتكون علىٰ هيئة مجالس عزاء . ومن أبرز هذه الملامح :

ـ إنّ الكتاب صدر ، كمجالس منبريّة ، عن عالِم فقيه مطلع علىٰ تاريخ واقعة كربلاء ، ممّا يكشف عن متانة الروايات والأخبار التي يذكرها وينطلق من خلالها إلى حالة التفاعل المقدّسة مع أحزان يوم أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) .

ـ إنّ حاكي مجالس هذا الكتاب رجل خطيب واعظ متمرّس بالوعظ ، يعرف كيف يمزج الموعظة بسياق المناحات الحسينيّة . وتظهر في بعض مجالسه هذه القدرة علىٰ إنهاض الناس من حالة الوهن الدينيّ إلىٰ الالتحاق المعنويّ بحالات سيّد الشهداء (عليه السلام) . . كما هو الحال في مجلس اليوم من هذا الكتاب .

ـ في نبرته هدوء عميق مُشْرَب بأحزان بعيدة الغور وأشجان عميقة

(١) جاء في (الذريعة) في تقييم كتاب الخصائص : « وهو أجلّ ما كُتب في حادثة الطفّ ، بل لم يسبق اليه سابق » .

المدىٰ . . فهو يجد نفسه روحيّاً وعاطفيّاً في تجلّيات فجائع الطفّ . وهو يقصد إلىٰ التصفية الباطنيّة والتهذيب الروحيّ للسامعين ، من خلال التفجّع والدموع المطهِّرة التي تُذْرَف علىٰ مصائب أهل البيت (عليهم السلام) في كربلاء .

ـ يبدو أنّ مِنْ حُضّار مجلسه كثيراً من العلماء والخطباء والطلبة الذين يعرفون قصّة المقتل . ولذلك كان الشيخ غالباً ما يكتفي ـ وهو في سياق المصائب ـ بالإشارة الدالّة اللمّاحة ، ويترك للسامع أن يستحضر في ذهنه ما يعرف من التفصيل أو كأنّ يقول دون أن يتمّ ذكر الحادثة المعيّنة : إلىٰ آخر ما ورد في الحديث أو يقول : وعليك بالرجوع إلى المصادر .

ـ إنّه بارع في تحسيس السامع بعمق الفاجعة ، من خلال ما يعقده من مقارنات مثيرة للشجن ومفجرّة لدموع البكاء . وهذا أسلوب قويّ الإثارة من أساليب الإيصال والتأثير . كما هو الشأن في مجلس اليوم السابع لدىٰ حديثه عن « عرس » القاسم بن الحسن (عليه السلام) .

ـ له طريقة « استحضاريّة » في التصوير ، يغدو معها القارىء كأنّه « يرىٰ » من مآسي الواقعة ما يصوّره الشيخ في مجلسه بالكلمات . ومن مشاهده التصويريّة هذه ما يُعَدّ نماذج عالية من الفنّ ، في ايجازه الشديد وفي الطاقة المركزة القادرة علىٰ تفجير البكاء من أعماق الفؤاد . إنّ فقرة واحدة مثلاً قد تُحْضِر السامع في قلب عاشوراء ، وتُريه من العناصر المفجِّعة ما يلتاع لها وتُسْلمه إلىٰ موجبات من بحر الجزع الزّخّار . وفوق هذا أنّه يُريه إيّاها رؤية « جديدة » قابعة في جوهر من الأحزان عجيب . يقول مثلاً في ختام مجلس يوم عاشوراء :

« ما يزال لك من أعمالك الآن أربع نظرات ، إلىٰ أربعة « أشياء » ! رغم ظُلْمة الجوّ . . فإنّ هذه « الأشياء » الأربعة تُشاهد . ذلك أنّها « أشياء » نورانيّة . نظرتان منهما إلىٰ السماء . . حيث « شيئان » يهبطان من السماء إلىٰ الأرض . ونظرتان إلىٰ « شيئين » يعرجان من الأرض إلى السماء .

أمّا النظرتان الأوليتان . .

فقد نظرتُ ، فرأيت نوراً . أنعمت النظر . . فرأيت « جبرئيل الأمين » يهبط من السماء ، ولديه كلام يريد أن يقوله !

النظرة الثانية منهما . . رأيت فيها نوراً . رأيت النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) يهبط من السماء مُغْباراً ، متغيّر الأحوال . . نازعاً عمامته !

هاتان النظرتان الأوليتان . أما النظرتان الأخْريان الأرضيّتان . . فقد نظرتُ في أولهما ، فشاهدتُ مَلَكاً يحمل « قارورة » وعرج بها إلىٰ السماء . قارورة زمرّديّة كانت ، وفي داخلها « شيء » ! ولمّا دققت النظر . . لاح لي فيها « دم » . أنعمت النظر . . فرأيت « دم الحسين » في القارورة التي كان يعرج بها إلىٰ السماء .

أمّا ثانية النظرتين . . فقد رأيت خلالها « شيئاً » يصعد إلى السماء ، ولكنه لم يبتعد كثيراً عن الأرض . لم يرتفع عن الأرض إلاّ بمقدار ما يرتفع الرمح ! توضّحتُه . . فوجدت « رأساً » على سِنان رمح . توضّحته اكثر . . فإذا هو « رأس الحسين » على الرمح ! » .

ـ إنّ الاطّلاع علىٰ مجالس الشيخ جعفر في هذا الكتاب ممّا يكشف للقارىء عن نمط من أنماط مجالس العزاء في أواخر القرن الثالث عشر الهجريّ . وفي هذا فائدة أيضاً لمن تهمّه مسألة تتبّع « تاريخ المنبر الحسينيّ » في مراحله الطويلة .

ـ إنّ المقدّمات الخاصّة بالتحميد والتمجيد والصلوات التي يستهلّ بها الشيخ كلّ مجلس من مجالسه لها دلالة علىٰ نزوع توحيديّ عالٍ ، وعلىٰ أفق عقائديّ رفيع . وهذا واضح في كلّ الفقرات التي كان يجعلها مقدّمة للمجالس . . سواء أكانت في هذا الكتاب ، أو في كتاب « فوائد المشاهد » .

ـ اللافت للنظر في مجالس الشيخ قدرتها علىٰ « تفعيل » السامع بالمناحات دون أن يلجأ إلى إنشاد شعر المراثي الحسينيّة ، كما هو المألوف قبله وبعده في مجالس العزاء . إذ المعروف أنّ للشعر من القدرة علىٰ الإثارة والإبكاء ما لا يقدر عليه الكلام المسترسل المنثور . وهذا كاشف آخر ـ إزاء

حالات الانخراط خلال مجالسه في عويل البكاء ـ عن مدى صدق الرجل ومدىٰ تمكّنه من الحديث القلبيّ النابض ، عن فجائع آل رسول الله في كربلاء ، دون أن يستعين بالمراثي الشعريّة .

ـ تعني الشيخَ جعفراً ـ الىٰ حدّ بعيد ـ حالةُ المسلمين الواقعيّة ، ويهمّه مستوىٰ التديّن الذي كانوا عليه . . إذ كان حريصاً علىٰ جذبهم إلى الله (تعالىٰ) وتطهيرهم بالتوبة والإنابة والكفّ عمّا ينأىٰ بهم عن الصّراط المستقيم . من أجل هذا جاءت مواعظه حارّة ، وأحياناً حادّة . . هي أشبه بوخزاتٍ للضمير .

ـ في مواضع عدّة كان الشيخ يحذّر وينذر المسلمين من مخاطر الانخداع بالموجة الغربيّة الطارئة التي بدأت تغزو حياة المسلمين في القرن الثالث عشر ، وخاصّة في المدن الكبرىٰ . وكان يرىٰ الإنفتاح على نمط الحياة الغربيّة ـ في منطلقاتها وممارساتها ـ خطراً من أكبر الأخطار . إنّ عمله الوعظيّ هذا يُعَدّ عملاً مبكّراً في صدّ الغزو الفكريّ والثقافيّ الوافد الغريب .

من الهيّن الميسور هي مسألة قراءة هذا الكتاب . لكن بشرط ألاّ تأتيه تقرؤه على عجل . . بحيث يتيح التريّث الكافي للذهن أن يتملّىٰ « المعنىٰ » وللقلب أن يتواصل مع « العاطفة » وللخيال أن ينطلق مع « التصوير » . وعندئذ يمكن أن تكون قراءتنا هذا الكتاب قراءة جيّدة ، يبقىٰ منها في دواخلنا ـ حتىٰ بعد أن نودّعه ـ « شَيء » . وهذا الشيء يساهم ـ علىٰ نحوٍ ما ـ في تكوين مضمون ذهن المرء وفي تلوين أشواق روحه .

* * *

وأخيراً . ..

كان نافعاً أن يداخل ترجمة هذا الكتاب عملٌ آخر سوىٰ الترجمة . وهذا العمل كان ذا ثلاث شُعَب :

الأولىٰ : اختيار عنوان للكتاب جديد ، بعد أن كان قد جُعِل له اسم « مواعظ » . وقد شجّع علىٰ هذا الاختيار أمران . أحدهما : أنّ هذه المجالس

التي كان الشيخ يلقيها لم تكن علىٰ هيئة كتاب عَمَد هو إلىٰ تأليفه وَوَضعِ عنوان له محدّد . وربّما كان مَنْ دوّن المجالس من تلاميذه هو من جعل لها عنواناً فيما بعد . وهذا يعني أنّه يمكن اختيار عنوان للكتاب آخر غير ما كان ذُكر ، ولا غضاضة في الأمر . والآخر : أنّ العنوان القديم . . ربّما لا يدلّ بدقة علىٰ مضمون الكتاب . وهو ـ إلىٰ جوار هذا ـ يفتقد القدرة علىٰ لفت النظر وشدّ الإنتباه . من أجل هذا تمّ اختيار « **الأيام الحسينيّة** » ليكون عنواناً للكتاب . . خاصة وأنّ مجالسه هذه قد أُقيمت في اكثر أيام الفاجعة حزناً ومناحة ، وهي أيام عشرة المحرّم .

الثانية : في الكتاب ظاهرة هي من خصائص الأسلوب الخطابيّ لدىٰ الشيخ الشوشتريّ في مواضع عديدة من مجالسه . وتلك هي ظاهرة الايجاز ، أو الاكتفاء بالاشارة عن التفصيل ، أو الإحالة في التعبير علىٰ فطنة السامع وذاكرته في الموضوع . وازاء هذه الظاهرة في الأسلوب كان نافعاً إضافة لفظة أو عبارة أو أكثر ، ليتماسك السياق وليتّضح ما غمض منه . وقد تمّ وضع اللفظة أو العبارة المضافة بين معقوفين [. . .]تميزاً لها عن النصّ .

الثالثة :وكان نافعاً أيضاً العناية ببعض الهوامش في أسفل بعض الصفحات ، لايضاح الغامض وبيان ما عسىٰ أن يكون مبهماً في النصّ . . دونما إثقال علىٰ القارىء ولا لجوء إلى الإحالات ؛ إذ الكتاب كتاب مجالس كانت تلقىٰ شفهياً ، لا كتاب بحث ودراسة وتحقيق .

إبراهيم رفاعة

رمضان المبارك عام١٤١٢ هـ



صورة الشيخ جعفر التستريّ (١٢٣٠ - ١٣٠٣ هـ)



أول الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

اللهمّ إنّي أُمجّدك ولا غايةَ لمجدِك . لا أُحْصي ثناءً عليك ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نَفْسِك .

توحّدتَ بالعَظَمة والعَلاء . وتفرّدتَ بالجُود والكِبْرياء . تاهت في كبرياءِ هَيْبتك دقائقُ الأوهام ، وآنحسرتْ دونَ النظرِ اليك خطائفُ أبصارِ الأنام .

نَحْمَدُكَ علىٰ جزيلِ الإنعام ، ونشكرك علىٰ جميلِ الإكرام .

ونُصلّي ونُسلّم علىٰ نبيّك نبيِّ الرحمة وإمامِ الأئمّة ، المنتجَب من طينةِ الكَرَم وسُلالةِ المجد الأقدم ، وعلى أهلِ بيتِهِ ينابيع الحِكَم وعِصَمِ الأُمَم ، والسادةِ الأتقياء والقادةِ الأصفياء . . ما دامتِ الخضراء علىٰ الغَبْراء ، وآستنارتِ الغَبْراء من الخضراء .

أمّا بعد . .

وأنتم اليوم هاهنا جالسون . . فليلاحظ كلّ مٰنكم حالته .

إذا وجدتَ قلبك يُعْتَصر [هذا اليوم] ويستولي عليك البكاء ، من دون أن يطرق سمعك شيء . . فلك البشرىٰ إذن ؛ فهذه علاقة الايمان .

تعـالوا أيّهـا الاخوة يَصْـدُق بعضنا بعضـاً : فنحن ـ منـذ سنّ التكليف ـ واعتقـادنـا بتـوحيـد الله ، ونبـوّة النبيّ [صلّىٰ الله عليـه وآلـه] ، وامـامـة الأئمـة (عليهم السلام) . . وحتىٰ الآن . . فـانّما هـو كلّه اعتقاد لفـظيّ مـا تجلّت فينا حقيقته . فهو ـ إذن ـ اعتقاد من دون حقيقة! ومن الواضـح البيّن أنْ لا شأن لجسد بلا روح ، ولا لقشر من دون لبّ ، ولا لظاهر بغير باطن!

أجل . . إنّ الحقيقة لا تحصل إلّا نادراً . وعـلامة [حصـول الحقيقة] هي هذا الحزن وهـذا الشجن . وهذه عـلامة ـ إذا وُجِـدَت ـ تدلّ علىٰ فـوزنا بمرتبة « المعجونيّة » بالولاية . ونكون عندها داخلين في تعبير : « **شيعتُنا خُلِقوا من فاضلِ طينتنا ، وعُجِنوا بماءِ ولايتنا** » . . ويكون قلبك قد اتّخذ طَريقاً إلىٰ الأئمة [عليهم السلام] ؛ إذ اليوم هو أوّل أيّام أحزانهم .

العبارات هذه ذكرتُها من باب الاشارة والتّنبيه . والآن . . . فَلْنمضِ تلقاء أصل الموضوع .

هذه الأيّام . . أيّام مصيبة . لا مصيبة واحدة ، ولكنْ عدّة مصائب .

أحداها : مصيبة الإسلام ؛ فالاسلام غريب في هذه الأيّـام . وهو ـ إلىٰ جوار غربته ـ قد أصابه الـوهن ، وغدت الغلبـة لِمُنكريـه . فمنها : غلبـة فرق الكفر ، من أمثال الغربيين ، علىٰ الاسلام . ومنهـا : مَيْل النـاس اليهم وتقبّل أفكـارهم ومبادئهم . . حتىٰ اضمحـلّ الإسـلام بين النـاس . وهـذه الأفكـار والمبادىء [الغربيّة] لم تأتِ باليُمْن والخير ؛ فمنذ وَفَدتْ والمسلمون مقهورون مغلوبون علىٰ أمرهم .

وقد سمعتُ أنّه كان ـ قبل حوالي ثمانين سنة أو مئة سنة ـ رجل أعمىٰ كان أبرز الغربيّين وذا اطلاع علىٰ أوضاع هذا العالم . . قد طلب منه الايرانيّون أن يعلّمهم الأصول الحربيّة لدىٰ الغربيين . لكنّه أجابهم : نحن لسنا متشدّدين في هذه المسألة . لكنّ هناك محذوراً . . وهو أنّكم ـ علاوة علىٰ أنكم لن تتعلموا هـذه الأصول ـ سـوف تفقدون السيف المنحني الـذي في أيديكم ، وتفقـدون فرسان الميدان .

أجل . . إنّ أمرنا في الدين غدا من هذا القبيل .

المصيبة الأخرىٰ : مصيبة التديّن لـدينا . وقـد ورد في الخبر المـأثور : « اللهمّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا » !

وبأدنىٰ تأمّل . . تجد أننا قد فُجِعنا أيضاً في تديّننا ، فلا يُستجاب هـذا الدعاء لنا . . من عدّة جهات :

فنحن ندّعي ـ كما ترىٰ ـ العبوديّـة لله . وندّعي أننـا أمّة خـاتم الأنبياء . وندّعي ولاية أئمة الهدىٰ ! أناشدك بالله . . أن تنظر إلىٰ الرابطة التي تـربطك بـالله . . ما هي ؟! مـا الصلة بينك وبين النبيّ (صلّىٰ الله عليـه وآله) ؟! مـا الارتباط بينك وبين الأئمة . . أفعالاً وأقوالاً وحركـات وسكنات ؟! هـذه أيضاً مصيبة أخرىٰ !

من مصائبنا كذلك : أنّ ذنوبنا قطعتْ [عنّا] الرحمة ، وذهبتْ ببـركات الأرض والسماء .

* * *

المصيبة الأخرىٰ : مصيبة هذا اليوم الغضّة الجديدة . مصيبـة « صاحب المصيبـة » . وقد صـار هذا التعبيـر كأنّـه لقب خاصّ بـالإمام الحسين (عليـه السلام) .

وآعلمْ أنّ هناك صفات ـ مع أنّها في أصل وضعها وفي معناها ذات سمة عامّة ـ هي أسماء للحسين [عليه السلام] .

أحدها : « صاحب المصيبة » . . الذي قد صار اسماً لـلإمام ، ووجـه اختصـاص هذا الإسم بـالإمام هـو ظهـور المصـائب فيـه علىٰ النحـو الأكمـل الأتمّ . . فلا أحد صاحب المصيبة في العالم غيره .

ومنها : « المظلوم » . . إذ غدا هذا [الوصف] عَلَماً علىٰ الامـام ، لا يَصْدُق علىٰ سواه .

وقـد ورد في الحديث عن الإمـام : « مَن أحبّ أن تكون الجنّـة مسْكنه

ومأواه ، فلا يَدَع زيارة المظلوم » . سأله الراوي : ومَنِ المظلوم ؟ قال : ألاَ تعرفه ؟! . . « هو الحسين بن عليّ صاحب كربٍ وبلاء » .

من أسمائه : « المكروب » . أي الذي اشتدّ الغمّ بقلبه [وكَرَبه] . وهذه الصفة لها اختصاص بالإمام كذلك .

* * *

هذه أيّام مصيبته . وبين مصيبته ومصيبتنا في تديّننا وجه شَبَه . بل بينهما ارتباط ، بحيث تعالج احداهما الأخرىٰ . ونستطيع بهذه المصيبة إزالة تلكم المصائب .

من ضمن المشابهة والمشاكلة بين المصيبتين أنّه ليس في مصيبة الحسين ما يُعَدّ كبيراً أو ما يُعَدّ صغيراً . إنّ الذي حلّ بالإمام [عليه السلام] فانّما هو مصيبة ما بعدها مصيبة تتزايد شدّتها . مصيبتنا في ديننا هي أيضاً من هذا النوع . . فكلّ ما يأتي هو أعظم :

مصيبة الموت . . عظيمة .

مصيبة دخول القبر وسؤال النّكيرين . . أعظم .

وأعظم منها : الحشر والنشر .

كلّ ما يأتي يتزايد شيئاً بعد شيء .

وكذلك مصائب « صاحب المصيبة » . وإذا أردتُ أن أقول أيّ مصائب ذلكم المظلوم أعظم . . فانّي لا أدري ما أقول .

يُروىٰ عن العَلياء المكرَّمة سُكينة (رضي الله عنها) أنها قالت : كان خروجنا من المدينة أشقّ شيء .

ولكنّ الأشقّ منه حان وقته اليوم . في صحراء النجف هذه كانت أول مصيبة أهل البيت :

علىٰ بُعد فرسخين من هنا . . جيش الحرّ وصل إلىٰ جيش

الحسين (عليه السلام) .

وحتىٰ اليوم أو أمس . . ما كانوا قد لقوا العدوّ أمامَهم .

قدم الحرّ . . بألف فارس . وكان ابن زياد قد نشر الجيش من الكوفة إلىٰ القطقطانيّة أو القادسيّة .

علىٰ أيّ حال . . وقعت أنظار النساء والعيال والأطفال علىٰ ذلك الجيش . . فكان الوجوم والخوف . وإذ رأىٰ الإمام خوف العيال . . أمر باصعادهم إلى تلّ هناك ، يقال له « ذو جشب » . ووقف الإمام مع أصحابه في صفّ عند أسفل التلّ . . لئلاّ يضطرب العيال .

هذه أيضاً كانت مصيبة عظيمة .

أجل . . إنّ كلّ مصائبه هي في غاية الشدّة وفي نهاية العِظَم . وإذا كان من تَصَوُّر [هنا] لـ « أعظم » و « أعظم » . . فانّما هو في مدىٰ درجاتها [ومدىٰ العِظَم] .

أترىٰ هذا الاضطراب هو الأعظم . . أم مصيبة الخروج من المدينة هي العظمىٰ ؟!

إنّ هذا [الاضطراب] ما هو باضطراب . . قياساً إلىٰ دخولهم كربلاء .

لو أنّ أحداً سأل العَلياء المكرّمة سكينة [سلام الله عليها] : اليوم الذي خرجتِ فيه من المدينة برفقة الأب العظيم . . ما نسبته إلىٰ اليوم الذي خرجتِ فيه من كربلاء علىٰ جَمَل بغير وِطاء ، باتّجاه الكوفة ؟!

عليك أن تستخلص : أيّ هاتين المصيبتين هي العظمىٰ !

لا بدّ أنك تقول انّ هذه المصيبة الثانية هي العظمىٰ . ولكنّ . . ليكن في علمك أنّ هناك ما هو أعظم من هذه !

والآن . . قارنْ : أهذه هي العظمىٰ . . أم انزالهنّ على باب دار ابن زياد ؟!

أجـل . . أريـد لأقــول : انـه ليس في هــذه المصـائب « عــظيمـة » و« عظمىٰ » ؛ فكلّها شديدة العِظَم .

* * *

أصل موضوعنا هو ما قُلناه من أنّه لا مناسبة ولا مجانسة بين أعمالنا وبين النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) .

لاحظْ شـأن النبيّ . . أتجد شَبَهـاً بيننـا وبين النبيّ هـذا السيّـد . . في عباداته وحركاته وسكناته ؟!

إنّ كـلّ رجائنـا في أنك تشبهـه في شيء . . أو إذا لم يكن هذا الشَّبَـه موجوداً فإننا نسعىٰ لتحصيله . وهـذه المشابهـة والمناسبـة بيننا وبين النبيّ هي « البكـاء على الحسين » ؛ فانّـه بكىٰ عليـه . . ونحن نبكي عليـه ، ونقيم لـه العـزاء . . لأنّ النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآلـه) قـد أقـام لـه العـزاء . وكـذلـك أمير المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة (سلام الله عليها) قد أقام كلّ منهما عزاء الحسين (عليه السلام) بكيفيّة خاصة . ونحن أيضاً نقيم له العزاء . . ولكن لا علىٰ النحو الذي يسوؤه [عليه السلام] .

وفي الحديث أنّ الإمام [الصادق عليه السلام] قال للمفضّل : « تزورون الحسين ؟ » . قـال المفضّل : نعم . فقـال الإمام : « تـزورون خير من أن لا تزوروا . ولا تزورون خير من أن تزوروا ! » . قال المفضّل : قطعتَ ظَهْري ! فقال (عليه السلام) : « تالله . . إنّ أحدكم ليذهب إلى قبر أبيه كئيباً حزيناً ، وتأتون أنتم بالسُّفَر[1] ؟! كلّا . . حتّىٰ تأتوه شُعْثاً غُبْرا » .

ما ابتغيه اليوم هو بيان كيفيّة إقامة عزاء سيّد الشهداء من قِبَل النبيّ (صلّى الله عليـه وآلـه) وأميـر المؤمنين (عليـه السـلام) . وإذ كـان هـذا هـو اليـوم الأوّل . . أذكر الآن إقامة النبيّ للعزاء .

إعلمْ أنّ النبيّ كـان يُكِنّ احتـرامـاً وتبجيـلاً ـ علىٰ نحـو خـاص ـ لسيّـد

(١) السُّفَر : جمع السُّفْرة .

الشهداء ، وله [في قلبه] محبّة مخصوصة . . علىٰ نحو لا يبلغه العقل .

لاحظ كيف كانت درجة محبّته له : كان رسول الله يخطب علىٰ المنبر إذ دخل الحسين (عليه السلام) المسجد . . [وهو يومئذ صغير السنّ] ، فعلقت قدمه بذيل ثوبه ووقع . فما كان من النبي ـ على عِظَمِ جلالته ووقاره ـ إلاّ أن قطع خطبته ، ونزل من المنبر . . وحَمَله . ترىٰ : ما هذه المحبّة ؟! دُهِش بعضهم ، وقال : يا رسول الله ، ما رأينا محبّة لطفل كهذه ! فقال [صلّىٰ الله عليه وآله] : « إنّ الله قد أمرني بحبّه » .

وعلىٰ الإجمال . . كانت تعزية النبيّ على طرقٍ ، لكلّ منها وضع خاصّ .

للنبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) تعزية ، منذ أوّل ولادة الحسين . . حتىٰ وقت احتضاره [صلّىٰ الله عليه وآله] .

كان قائماً في الحجرة لدىٰ ولادة الحسين . . فقال بعد ولادته : هاتوا ولدي . فقالت أسماء [بنت عُمَيْس] : لم نطّهره بَعْد . فقال : أأنتِ تطهّرينه ؟! إنّ الله قد طهّره . وقبل أن يراه أحد . . لفّته بقماش من صوف وجاءت به اليه . نظر النبيّ إلىٰ الحسين أوّل نظرة . . وقال :

« عزيزٌ عَلَيَّ ، عزيزٌ عَلَيّ . . يا أبا عبد الله » !

وله مجلس عزاء آخر وقتَ رحل عن هذه الدنيا . . كان الحسين (عليه السلام) علىٰ صدره . وكان عرقه المبارك يرشح من جبينه علىٰ وجهه . . وهو ماضٍ تلقاء عالم البقاء . لا أدري ما خطر في باله حتىٰ قال : « ما لي وليزيد ؟! اللهمّ العنْ يزيد » .

هذا كان لدىٰ احتضار النبيّ . . في وقت ارتحاله عن هذا العالم . أما اقامته العزاء بعد الارتحال . . فهو في يوم عاشوراء ! اذكره [هنا] بعجالة :

يقبّل « جبينه » . . ويبكي .

مرّة يقبّل « شفته وفمه » . . ويبكي .

مرّة يقبّل « نَحْره » ويبكي . والنحر هو حفرة الرَّقَبة (اللَّبَّـة) . . حيث يُنْحَر البعير .

مرة اخرىٰ يكشف عن « بطنه » . . ويقبّله كثيراً .

كـان كثيراً مـا يقبّل هـذه المواضـع الأربعة بشكـل خاص ، وفي بعض الأوقات لم يكن تقبيل النبيّ خاصّاً بموضع معيّن :

كـان هـذا المـظلوم صغيـر السنّ يحبـو ، فيـأمـر [رسـولُ الله] أميـرَ المؤمنين (عليه السلام) أن يمسك له الحسين . . فيقبّل « كلّ » بدنه ، وهـو يبكي . فيقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : ما يبكيكَ يا رسول الله ؟ فيقول : « **أقبّل موضع السّيوف** » !

نعم . . يـا أخي . إنّ أفعال النبيّ (صلّىٰ الله عليـه وآلـه) تَقُـومُ علىٰ حكمة . وكلّ واحد من هذه المواضع له معنىٰ .

أمّا سرّ تقبيل « الجبين » . . فطالما كان بعضهم يظنّ أنّ هذا التقبيل كان لأنه موضع الحَجَر الذي اصاب الإمام [عليه السلام] يوم عاشوراء . وربما لم يكن الأمر [كما يظنّون] ، فلعلّ سرّ ذلك أنّ الإمام وقت استشهاده كان جبينه علىٰ الرمضاء .

أمّـا « الشَّفَة والفم » . . اللذان قبّلهمـا مراراً وتكـراراً . . حتىٰ عندمـا يكون الحسين (عليه السلام) احياناً مع الأطفال في الزقاق . ويحدث أنْ يمرّ النبيّ . . فيقصد الحسين . عندئذ يسرع الحسين فيجري إلى ذات اليمين ثمّ إلى ذات الشمال [كأنما يريـد أن يلعب مع النبيّ] . . فيفعـل خاتم الأنبيـاء مثلما يفعل [الحسين] . . حتىٰ يمسك به ، ويقبّل فمه وثناياه .

النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) الذي هو « صـاحب الوقـار والسَّكينة » . . يغدو كالحسين راكضاً يمنةً ويسرة . . حتىٰ يمسك به ، ويقبّل فمه وشفتيه ، أو يقبّل ثناياه .

وقـد تبيّن ـ بعدئـذٍ ـ أنّ هذا كـان [لأمر] ؛ ذلـك لأنّ تلكما الشفتين ،

وذلكم الفم . . غدا موضعاً لتلك العِصِيّ التي يخرس اللسان عن ذكرها .

أما تقبيل « النَّحْر » المقدّس . . فاعلمْ أنّ النَّحْر والذَّبْح شيئان مختلفان في الذبح يُفْصَل الرأس عن البدن .[وفي النَّحر] : يُغْرز الرمح أو السِّكّين في اللَّبَّة . . كما يُنحر الجمل !

آه . . واحسرتاه ! ذلكم المظلوم ليس ذبيحاً هكذا ، وإنما كان منحوراً أيضاً . . كما تقرأ في فقرات الزيارة عن صفاته [عليه السلام] : « **نحره منحور** » .

إنّا لله . . وإنّا إليه راجعون . .



ثاني الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال بعد الخطبة[1] :

لست أدري عن أيّ هاتين المصيبتين أتحدّث : مصيبة نفوسنا ـ أي مصيبة تديّننا التي تَحُول دون إجابة دعائنا : « لا تجعلْ مصيبتنا في ديننا » ـ أمْ أتحدّث عن مصيبة هذه الأيّام ؟!

في البدء لا بدّ من ذكر مصيبتنا نحن ؛لأن صاحب المصيبة العـظمىٰ قد تحمّل كلّ تلكم المصائب ليدفع عن الناس هذه المصيبة .

وعلىٰ هذا . . ينبغي أن أتحدّث عن مصيبتنا ، فأقول :

« اللهمّ . . عَظُمَ بلائي ، وأفرطَ بي سوءُ حالي ، وقَصُرَتْ بي أعمالي ، وقَعَدتْ بي أغلالي » .

أيْ : يا إلهي . . لقد اشتدّت مصيبتي ، من عدّة جهات .

وإنّي لأكرّر ـ ما استطعت ـ من قول :

(١) لم تَرِدْ هنا خطبة التحميد والتمجيد والصلوات .

« اللهمَّ عَظُمَ بلائي » . . ما ربحتْ تجارتي ، وخسرتُ نفسي .

أي : إلهي . . إن الثروة التي أعطيتني إياها ، قد ذهب مقدار منها ، وبقي مقدار . فلا أنا ربحت ، ولا نلتُ فائدة ، ولا جنيت نفعاً . ما حوّلت منها بضاعة إلى سوق الآخرة ، بل اشتريت بها بضاعة [للدنيا] .

وأيّ سوق ذاك ؟! إنّه سوق لا يُقْبل فيه إلاّ النقد الخالص . صرّافه ناقد بصير ، لا يَقْبل الزَّيْف .

ما تعاملتُ في هذه الدنيا ـ التي هي مَتْجَر أولياء الله ـ كما ينبغي . . فلا المعاملة نافعة ، ولا البيع صحيح ، ولا البضاعة سليمة ، ولا النقد خالص !

لا أدري . . بأيّ وجه أذهب غداً إلىٰ دار صاحب المال . . وقد جعلني هنا أجيراً ، وأعطاني ثروة [أتاجر بها] ؟!

وأقولها أيضاً مِراراً : « اللهمّ . . عَظُم بلائي » ! أعطيتَني بذراً ووجّهْتَني إلى مزرعة الدنيا التي جعلتها مزرعة للآخرة . . فلا بذور ، ولا حراثة ، ولا نسيم رحمة ! لا في أوان الشبيبة بكّرتُ بالزرع ، ولا أرجأتُه إلىٰ زمان الهرم والمشيب ! لا في موسم الصيف . . ولا في موسم الشتاء !

وغداً حين أمضي . . يحين وقت الحصاد ! فما عساه يكون حصادي ؟!

« اللهمّ . . عَظُمَ بلائي » ! عَلَيّ أن أكرّرها كثيراً . لقد وقعتُ في بحر الدنيا الأسْوَد هذا ، وآبتلعَتْني فيه الدّوّامات . . فلا أنا سَبَحْت ، ولا أنا بلغتُ الشاطيء ، ولا اتّخذت سفينة للنجاة !

لا أدري . . ما ستكون عاقبة هذا الغَرَق الحاضر المُهَيّأ ؟! غرقتُ في بحر الدنيا الأسْود ، ثمّ أغرق بعدئذ في القبر ، وبعدها في القيامة ! إنّي . . لأخاف من هذا الغرق . آه ! آه !

« اللهمّ . . عَظُمَ بلائي » ! الآن ـ وأنا هنا ـ أسلمتُ نفسي للعدوّ . النفس الأمّارة . . عدوّ الشيطان . . عدوّ . صرت مطيعاً لهما . خوفي أن أظلّ علىٰ هذه الحال ، وأنا انتقل ـ فيما بعد ـ من هذين العدوّين إلىٰ أعداء

آخرين !

ليكن هـذا واضحاً !عنـدما تـذهب [من هذه الـدنيـا] وأنت علىٰ هـذه الحالة . . يكون مَلَك الموت عدوّاً لك ؛ لأنّه يعادي أعداء الله . المَلَك الذي يحملك إلى قبرك . . عدوّ لك ! المَلَكان (النكيـران) . . عدوّ لـك ! وبعد الخروج . . ملائكة « الأخْذ » . . عدوّ لك ! من عدوّ إلىٰ عدوّ . . حتّىٰ تصل النوبة ـ والعياذ بالله ـ إلىٰ مالكٍ [خازن] جهنّم . . وهو أيضاً عدوّ لك !

« اللهمّ . . عَـظُمَ بلائي » ! ثقيـل هو بـلائي . طُـرُق أمـامي . . وأنـا غريب !

حين أمضي من هـذا العالم . . مـا لي من علم بتلكم الـطرق البعيـدة النائية ! لا محطّة [للاستراحة] . . لا رفيق . . لا متاع للطريق ! لا أدري أين هو منزلي ! إنّي لأخشىٰ أن أظلّ ـ في ذلكم العالم ـ تائهاً تنتـابنـي الحيرة . . وكذلك في سائر تلكم العوامل .

« اللهمّ . . عَـظُمَ بـلائي » ! لقـد التهبتْ في كـلّ وجـودي نيـران المعاصي . . وهو ما تقوله الملائكة في أوقات الصلاة [تخاطب الناس] :

« قـوموا إلىٰ نيـرانكم التي أوقدتمـوهـا علىٰ ظهـوركم . . فـأطفئـوهـا بِصَلاتكم » !

خـوفي أن أمكث في هذه النيـران . ثمّ تأتيني عنـد الاحتضـار . . نـار « الاحتضار » ، فتزيـد النيران نـاراً ! ثمّ تجيء ـ زيادة عليهـا ـ نار « القبـر » ! وأخاف أنّ أظلّ هكذا لتُزاد عليها ـ من بَعْد ـ نار « القيامـة » ! وأخاف أن أبقىٰ هكذا . . فتُزاد عليها ـ بعدئذٍ ـ نار « العاقبة » !

على أيّ حال . . البلاءات عظيمة . تُرىٰ . . لأيّ هذه المخاوف التي ذكرتُها أنوح . . « ولِما منها أضجّ وأبكي » ؟!

إذا حضـرك [الآن] البكاء . . فـإنّه ينفعـك ـ إنْ شـاء الله . وإلاّ فـان تجـرّعك الغُصّـة شيء حَسَن . وإذا لم يحضـرك البكـاء . . فـإنـك تقـع في

الأهوال ، ويبلغ أمرك عندئذ منتهاه . وإني لأرجوك ألّا تضحك من هذا الكلام في الأقل . أملي أن تكون لدىٰ حُضّار هذا المجلس حالة الخوف هذه ؛ فالذين يضحكون من مثل هذا الكلام لا يسعفهم التوفيق [عادةً] لحضور مثل هذه المجالس .

ثَمّة هول آخر . . هو أشدّ من تلكم الأهوال .

قلت : إنّي لأخشىٰ أن أخسر في تجارتي ! أن تحترق زراعتي ! أن أغرق ! أن أتقلّب من ظلمات إلى ظلمات !

كانت كلّ تلك المخاوف . . فُرادىٰ . وخوفي الآن من أن ألقاها كلّها مجتمعة !

سوف أنادي الآن أصحاب هذه المخاوف واحداً واحداً . . لنعثر لكلّ منهم على علاج :

أيّها الخاسرون في التجارة ! يا مَنْ أضاعوا رؤوس أموالهم وباتوا منها صفر اليَديْن ! ما عندنا من نقد خالص نحمله إلىٰ سُوق القيامة !

[اعلموا] أنّ مَلِك التُّجّار سيمرّ اليوم علىٰ أرض النجف . . وقد رَزَم معه في حقائب السفر البضائع المرغوبة من كلّ نوع . . قاصداً المُتاجَرة .

أيّها الخاسرون في تجاراتهم . . تعالوا نذهب ، لنلتحق بالقافلة .

أجل . . في هذا اليوم : الثاني من المحرّم ـ كما ورد في الأحاديث ـ وصل إلى أرض كربلاء .

أيّها الغُرباءِ . . يا من لا تَدرون أين ستُلْقُون عصا التَرْحال في هذه الأسفار التي مضيتم فيها . . تعالَوا ؛ فهاهنا منجاة لكم [ومعتصَم] :

اليوم تمرّ علىٰ الطريق مركبة « غريب » تكون لكم دليل الطريق . تعالوا . . نتعقّبه ، ونمضي وراءه .

أيّها الغارقون في بحر الدنيا الأسْوَد ! أيّها الغَرْقىٰ الذين أخشىٰ أن ينتقلوا

من هذا الغَرَق إلىٰ غَرَق آخر يمكثون فيه إلىٰ الأبد ! ثمّة وسيلة نجاة لكم :

اليوم قد رفع صاحب « سفينة النجاة » شراعه ، وألقىٰ المرساة في صحراء كربلاء . اليوم تنكسر سفينته ، ولكنها ستكون نجاة للعالمين .

تعالَوا . . نصل إلىٰ سفينة النجاة هذه .

وسفينة النجاة هذه ـ ببَرَكته ـ لا تحتاج إلىٰ ماء كثير . إنها يمكن أن تجري علىٰ قطرة واحدة . .

يا مَن احترقت زراعته ! يا من جاءوا إلىٰ [مزرعة الدنيا] وما زرعوا . . لا بذور لديكم ولا حرث . ما عندكم من محصول صيفيّ ولا شتائيّ ! ولدىٰ الحصاد . . ما لكم غير الخيبة والخسران !

هناك خلاص لكم : سيمرّ زارع في الطريق . . ومعه أنواع الفَسائل والشَّتْلات ، قاصداً المُضِيّ ليغرس غرسه في كربلاء .

تعالَوا . . نمضِ جميعاً لنرافقه . . فندخل في بستانه وروضته . وإنّه لجواد كريم . تعالوا . . نَسْتَفِدْ من ثمار بستانه ومن محاصيله .

أيّها المسافرون الذين مَضَوا في هذه الأسفار . . ولا مُسْعِف لهم ! إنْ لم تذهبوا [معه] . . فانّكم ـ لا بُدّ ستؤخَذون عُنْوَة ، حيث ما من دار لكم هناك . . ولا منزل !

اليوم يمرّ صاحب مَضيف . . قاصداً كربلاء . لقد أعدّ مضيفه وهيّأه . . وعليكم بلوغ هذا المضيف .

من أجل هذا كلّه . . تعزمون اليوم ـ إنْ شاء الله ـ أن تركبوا في سفينة النجاة . أن تلحقوا بقافلة السيّد الدليل . أن تقصدوا صاحب المضيف . أن ترافقوا هذه المركبة .

لا تظنّوا أنّ هذه كنايات . كلّ هذه المعاني لها حقيقة ، وقائمة علىٰ واقع .

في احدىٰ المعارك . . قال أحدهم لأمير المؤمنين (عليه السلام) : يا أمير المؤمنين ! يا ليت أخي كان معنا !

فقال الإمام : أهَوىٰ أخيك معنا ؟

قال : نعم . (ويبدو أنّه أقسم علىٰ هذا)

فقال الإمام (عليه السلام) لقد حَضَرنا ، وسيحضرنا رجال ما يزالون في الأصلاب .

يعني : لأن قلوبهم معنا . . فكأنّهم حضروا معنا في هذا المعسكر .

وأقول لكم الآن : هيّا . . نذهب من هذه الصحراء ، لنلحق به . . لنصل إلىٰ النجاة والغاية .

دَعُونا الآن من هذا !

لقد كتبتم أنتم « رسائل محبّة » إلى الحسين (عليه السلام) . أنتم لستم أهل الكوفة . . لا تَفُون . طلب الإمام منكم النُّصْرة . لن تكونوا بلا وفاء . ستذهبون معه .

أعزمتم ـ إذَنْ ـ علىٰ المُضِيّ في هذا السبيل ؟!

من هاهنا . . استحضروا نفوسكم ، في عالَم السَّيْر ؛ فلقد طُلبتم للنّصرة ونصرة كلّ منكم من نوع علىٰ حياله .

لقد سرتم في عالم الحقيقة ـ إنْ شاء الله ـ حتىٰ تصلوا إلىٰ [أبي عبد الله] .

والآن ـ إذ ذهبتم ـ لاحظوا حال الإمام . . فماذا ترون ؟ سَتَرَوْن :

ان ابن زياد قد أعد العسكر والفرسان علىٰ طول الطريق من الكوفة إلىٰ القادسيّة (أو القَطْقطانيّة) . . لئلاّ يلتحق أحد بالإمام لنصرته ، أو أن يقصد أحد الكوفة [رسولاً] من قِبَل الإمام .

ألاحظ حاله . ترىٰ . . عن أيّ وضع من أوضاعه أتحدّث ؟ !

أشير إلىٰ مضمون قول الحرّ بن يزيد الـرّياحيّ (رضـوان الله عنه) ممّـا يتّصل بحالة الإمام ووضعه . . فهو يكفيكم لتتعرّفوا علىٰ غربته وكربته .

تفصيل كلام الحرّ ورد في [كتاب] البحار . . وملّخصه :

دَعَوتم هذا العبدَ الصالح . . فأجاب دعوتكم ، فحاصرتموه . . (حتّىٰ يقول) : وأخذتم عليه نَفَسه ، حتّىٰ غدا كالأسير في أيديكم !

لقد ضيّقـوا علىٰ الإمام . . حتّىٰ لم يَبْقَ له من ملجأ في الأرض سوىٰ كربلاء . أخرجوه من حرم جدّه . . فقصد حرم الله [مكة] . ثمّ ضيّقوا عليـه ولم يـأمن حتىٰ في حرم الله الآمن . أخـرجوه [من مكـة] . . يقـطع منـازل الطريق ، حتىٰ بلغ كربلاء .

لاحظْ هذا المظلوم ، وآنظر إلىٰ مصيبة الإمام .

في الطريق . . أتاه رجل ، واقترح عليه أن يعمل كذا وكذا . وممّا قيل له ـ اقتراحاً ـ أنِ : اذهبْ إلىٰ اليَمَن ؛ فانّ لـك هناك شيعـة كثيرين ! وقيـل له أيضاً : اتّخذِ الجبلَ الفلانّي مأوى تقيم فيه !

قال الإمام [عليه السلام] : يا فلان . . لو قصدتُ حجر نمل أستخفي فيه . . لَما تركوني .

لا تَـظُنّنَ أنّ مصيبة الإمـام . . هي ما نـاله من اصـابـة السهم والـرمْـح والخنجر [وحسب] ؛ فمن مصائبه العظيمة . . أنّه حين كان يمضي في طريقه [إلىٰ الكوفة] وكانت تلك أيّام حجّ تمرّ فيهـا كثرة من قـوافل الحجيـج ـ كان السائرون في القوافل يحاذرون لُقيا الإمام ، ويتنكبون عن الطريق الذي هو سائر فيه . . خشية أن يدعوهم إلىٰ نُصْرته !

يقول زُهَيْر بن القَيْن (رضي الله عنه) : في تلك الأيّام كنّا جماعـة . . في الطريق . فكنّا نحطّ رحالنا ـ إذا توقفنا ـ علىٰ مَبْعدة من مَحَطّ رحال الإمام . حتى بلغنـا منزلاً [من منـازل الطريق] عنـده بئـر . وفي الـوقت الـذي كنّـا عـلى

الطعام . . جاءنا رسول الحسين (عليه السلام) ، وقال : يا زهير . . إن أبا عبد الله يدعوك .

فطرح كلّ منّا ما في يده . . حتّىٰ كأنّما علىٰ رؤوسنا الطير .

عندئذٍ . . نادت زهيراً زوجته ـ من وراء السّتر : سبحان الله ! يا زهير . . أيبعث إليك ابن رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) . . فلا تأتيه ؟ !

[هذه واحدة . . والأخرىٰ] أنّ عُبَيْد الله بن الحُرّ الجُعْفي ـ وهو من كبراء العرب ـ كان في حينها قد خرج من الكوفة ، وضرب فِسْطاطه في نواحي [منطقة قصر بني مُقاتل] . . [فأرسل إليه الإمام رسولاً] يدعوه إلى نصرته . . فلم يُجِب .

قال الإمام : أنا أذهب إليه . حتّىٰ إذا جاءه الإمام ، ودخل خيمته ، قال له : أيّها الرجل . . أنت مذنب خاطيء . . فتعال لنصرتي تكن كفّارة لك عن ذنوبك .

فقال : أنا رجل ذو مال وشرف وعشيرة . والله ما خرجت من الكوفة إلّا مخافة أن تدخلها وأنا فيها ولا أنصرك ! ولكن : هذا فَرسي ورمحي . . خُذْهما اليك !

قال الإمام : لا حاجة لنا في فرسك ومالك . ولكن . . فُرّ في هذه الصحراء ؛ لئلّا تسمع واعيتنا . . [فانه من سمع واعيتنا أهل البيت ثمّ لم يُجِبْنا . . كبّه الله على وجهه في نار جهنّم] . وتفصيل هذه الحكاية في « البحار » .

الخلاصة : كأني [أرىٰ رَجُلاً قد مَرّ قرب الإمام الحسين (عليه السلام)] ولم يسلّم عليه . . حتىٰ وصل إلىٰ الحرّ . كان يحمل رسالة من ابن زياد . . جاء فيها .

« أمّا بعد . . فَجَعْجِعْ بالحسين حين يبلغك كتابي هذا ويَقْدِم عليك رسولي ، ولا تُنْزِله ، إلّا بالعراء . . في غير حضر وعلىٰ غير ماء » .

من أجل هذا . . كان الإمام أراد أن ينزل في « نَيْنَوىٰ » أو « الغاضريّة » أو « سَفيَّة » ، ويجعل العيال في احدى القـرى . . فلم يَدَعـوه يفعل ، ودفعـوا به إلى كربلاء . . بَعيداً عن العمران .

كأني أشاهد الإمام[عليـه السلام] قـد تناول قبضـة من تراب الأرض ، وشمّه . . ثمّ قال ، (أو سأل عن اسم هذه الأرض ، فلّما قيل له : كربـلاء ! قال) : **هاهنا مَحَطّ رحالنا ! هاهنا مَسْفَك دمائنا !**

إنّا للّه . . وإنّا إليه راجعون . وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنْقَلب ينقلبون .



ثالث الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

يا مَنْ تَحَيَّرتْ في أشعّة أنواره أفهام الموحِّدين . وتقاصَرتْ دُونَ إدراك كماله أوهامُ المتوهِّمين . واضمحلّتْ في لوامع شوق لقائه أسرارُ الكاملين . وتَضَعْضَعتْ بكمال أحَدِيّته وصَمَديّته قلوبُ العارفين .

نَحْمَدُك حَمْدَ الشاكرين ، ونؤمن بك إيمانَ المخلصين .

ونُصَلّي ونُسلّم علىٰ نبيّك محمّد سيّدِ الأوّلين والآخرين ، والمبعوث رحمةً للعالمين . . وعِتْرتِه الأطائب المطهّرين ، والسّادة المنتَجَبين ، والخلفاءِ الراشدين ، والهداة المهديّين ، والشُفَعاء في يوم الدِّين . عليهم أفضلُ صلاة المُصَلِّين . . صلاةً دائمة بدوام السماوات والأرضين .

« اللهمّ . . لا تجعلْ مصيبتَنا في ديننا . ولا تجعلْ الدّنيا اكبر هَمّنا ، ولا مَبْلَغَ عِلمنا ، ولا تُسَلِّطْ علينا مَنْ لا يرحَمُنا » .

لو أنعمتَ النظَر . . لعرفت ما الذي أسلمَ قيادك إلىٰ يد الظالم . الظالم هو نحن . إنّه نَفْسُنا الأمّارة بالسوء .

إذا تفحصّتَ جيداً ، واستبان لك إلىٰ أيّ مدى قد تَسَلّط هذا الظالم عليك ، وما الذي أنزل من البلايا بك . . فإنك لن يقرّ لك قرار .

عليك أوّلاً أن تلاحظ صفات هذه النفس التي وَرَدت الشكوىٰ منها في بعض الدَّعَوات . . علىٰ نمط يعلّم كيف نشكوها بين يَدَي الله [جلّ جلاله] :

« اللهمّ . . إنّا نشكو إليك نفساً بالسّوء أمّارة ، وإلىٰ الخطيئة مُبادِرة ، وبمعاصيك مُولَعة . . »إلىٰ آخر ما ورد ، وعليك بالمناجاة الخمسة عشر [من الصّحيفة السجّاديّة] .

إنّ كلّ هذه الصفات قد اجتمعتْ فيّ . . وفيك . تأمّلْ في الدعوات [التي وردت] حول النفس . كلّكم تقرؤون في الزيارة المعرفة [حين تقفون] أمام وجه أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« اللهمّ . . صَلِّ على محمّدٍ وآل محمّد ، وآجعلْ نفسي مطمئنّةً بِقَدرك ، راضيةً بقضائك ، مُولَعةً بذِكرك ودعائك » .

أوَدّ لو أعرف . . هل هذه الدعوات هي « كليشهات » وأكاذيب ؟ ! والله ما ديننا بدين الكليشهات ، ولا ديننا دين قشر لا لبّ فيه . لو دقّقتَ النظر لوجدت كلّ أعمالك وأفعالك خالية من اللُّباب ، ولوجدت أدعيتك كلّها مجرّد قالَب لا روح فيه !

قُل الحقّ . . أيّ فِقْرات هذا الدعاء من الزيارة التي تقرؤوها كلّ يوم متحقّقة فينا ؟ ! أستحلفك بالله . . أفيك فقرة من هذه الفقرات ؟ ! أتراك مطمئنّاً حقّاً بِقَدَر الله ؟ !

إذا كان ظنّك أنّ ذلكم العالَم [عالم الآخرة] هو كهذه الدنيا تستطيع أن تمرّر فيه امورك بالمجاملات الرسمية والاكاذيب فإنك والله على خطأ . إنّ ذلكم العالم عالم الحقيقة ، لا يحتمل « الكليشهة » والكذب .

أنظر الآن . . أفيك سُنّة من « سُنَن أولياء الله » ؟ ! أأنتَ مفارق حقّاً لصفات أعداء الله ؟ ! [أحَمَلْتَ] معك زاد التقوىٰ ليوم جزائك ؟! أأنت مُعْرِض [واقعاً] عن الدنيا ، ومشغول بحمد الله وثنائه ؟ !

يا أيّها الشقيّ ! كلّ الصفات النفسيّة الذميمة فيك . . وما فيكَ واحدة من

هذه !

وهذه علامة علىٰ أنّ قيادك عالق في قبضة الظالم .

علينا أن نفكّر ـ في الأقلّ ـ ألّا نخدع أنفسنا ؛ فانك لن تستطيع أن « تُعَبّرها » علىٰ الله وعلىٰ الملائكة بالحيلة والمزاح . فلنكن مُنْصفين ـ في الأقلّ !

أجَل . . الكلام [اليوم] علىٰ تسلّط هذا الظالم الممسكُ بقيادك .

أتراه يجعلك تفكر في الأسفار التي أمامك ؟ ! إنّ أمامك لأسفار [كثيرة] :

سَفَر تغلق فيه عينيك عن هذا العالم . . لتفتحهما في الآخرة !

أمامَنا سفر من هذا العالم . . إلىٰ عالم القبر .

وسفر من القبر . . إلى عالم البرزخ .

وسفر من البرزخ . . إلى عالم الحشر .

سفر من الحشر . . إلىٰ النشر .

سفر من الموقف . . إلىٰ الحساب .

سفر من الحساب . . إلى الميزان .

سفر من الميزان . . إلىٰ عبور الصراط . سفر من الصراط . . إلىٰ حيث « قُضِيَ الأمر » !

ولا أدري . . أين سيبلغ بنا الأمر منتهاه !

عليك أن تنظر . . أتَرَك لنا هذا الشقيّ أن نفكّر ـ في أقلّ تقدير : بأيّ زاد نذهب في تلكم الدروب البعيدة وبأيّ متاع ، ومع أيّ رفيق ، وفي أيّ طريق ؟ !

ما الذي يريده منّا مَن سوف نمضي اليه ؟ ! وماذا نحمل معنا له ؟ !

السَّفَر الأوّل ـ وهو أيْسَر هذه الأسفار وأهونها ـ سفر من هذا العالم . . نروح فيه إلىٰ عالم آخر ، هو عالم « الاحتضار » . وهو ـ كما قلنا ـ أهونها وأيسرها .

في هذا السفر وحده . . قد جُعِلت أشياء . فكِّرْ : أين سيبلغ بي الأمر في هذا الطريق ؟ ! أأذهب إلى رحمة الله ؟ ! إنّي لأخشىٰ ـ لا قدّر الله ـ أن أمضي إلىٰ غضب الله ! لا تكتفِ بما يقوله الناس [عمّن مات] : المرحوم فلان ! أضمنتَ ـ حين وفاتك ـ أن تكون مرحوماً ؟ ! أخشىٰ أن تكون مسخوطاً عليه ! مغضوباً عليه ! ملعوناً ! أفكّرتَ في هذا الموضوع ؟ !

إنّ هذا الخبيث لا يدعك تغتمّ [في هذه الدنيا] ولا تحزن . فَلْيَدَعْك ـ في الأقلّ ـ تفكّر : إنّ ذلكم المأمور الذي يأتي لأخذي وقت الوفاة . . بأيّة حالة سوف يأتي ؟ !

وَرَد في الأخبار أنّه يأتي إلىٰ بعض الناس . . علىٰ نَحْوٍ لو أنّ ذلكم العالم ما فيه من نعيم إلّا نعيم رؤيته . . لكفاه ذلك سعادة ! ويأتي آخرين علىٰ هيئة . . لو لم يكن معها [في الآخرة] من عذاب ، إلّا رؤيته . . فكفاه ذلك عذاباً !

لا أدري أيّ نوع من الملائكة سيكون للاستقبال عند الموت . . أهم ملائكة العذاب ، أمّ ملائكة الرحمة ؟ !

الهول الأوّل في هذا السّفر . . هو « **هول القبر** » ـ وهو أدنىٰ الأهوال وأقلّها . . لست أدري ما سيحلّ بك [فيه] !

ألّا ترىٰ كيف بكىٰ رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) عندما نزلت آية ﴿ **إنّك ميّت** . . ﴾ ، قبلَ رحيله بسنة . . فقيل له : أوتبكي من الموت ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ !

الإمام الحسن (عليه السلام) كان يبكي أيضاً . قيل له : أتبكي . . وأنت سِبْط النبيّ ، وقد قسمت أموالك بينك وبين الله . . ثلاث مرّات ،

وحججت حافياً مرّات عديدة ؟ !

قال : انّه لهول من طريق . . ما سبق أن سرتُ فيه !

[أجل] . . يا أخي . إنّ صدمة في هذا المنزل ستصيب نضرة الوجوه ! ولا أدري ما الذي سوف يكون !

سمعت عن حكاية سعد بن معاذ الذي هو أحد الشهداء فقد توفي بسهم أصابه في الحرب . ولقد شيّع رسول الله(صلّى الله عليه وآله) جنازته ، وهو حافي القدمين . . ثمّ صلّىٰ عليه ، وقال : شيّعَتْه قبائل من الملائكة . النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) بنفسه النفيسة أنزل سعداً في قبره ، ورصف لحده بالحجر ، وبيده المباركة أهال التراب عليه . وحين قام أخذته هزّة . قالوا : ماذا جرىٰ [يا رسول الله] فقال : لا أدري كيف يكون وضعنا مع هذا الشقيّ الذي لا يدعنا نفكر في عاقبة أمرنا !

[الصّدّيقة] فاطمة (سلام الله عليها) . . قد أعدّت لمنزل القبر عدّة أمور :

لمّا حضرتها الوفاة . . ناولت أمير المؤمنين (عليه السلام) قارورة صغيرة .

قالت : إذا أدخَلْتَني قبري . . فاجعلها إلىٰ جنبي ؛ فانّ فيها دموع عينيّ . . فاني سمعت أبي يقول : هناك عَقَبة لا يجوزها إلّا الباكون من خشية الله .

الأمر الآخر . . أنها قالت : يا عليّ ! إذا جعلتَني في قبري . . فلا تنصرف سريعاً ، وتلبّثْ قليلاً .

إجمل الموضوع . . أنك لا تبلغ هذه المقامات . ولربما تعجب : كيف يتأتّىٰ تهيئة قارورة من الدموع ؟ ! فلتذرِفْ ـ إذن ـ قطرتين في الأقلّ . . بكاءً من خشية الله !

علىٰ أيّ حال . . ندع هذا الموضوع ؛ فانّ له تتمّة .

* * *

هذا الظالم الشقيّ . . ظالم لا يدع أحداً يعمل .

أتكلّم أولاً علىٰ حالي أنا . . فأقول : بعد التدبّر والتفكّر . . أجد أنّ هذا الظالم لم يَدَع لي من عملِ خير .

فيما يتّصل بالمعتقدات الحقّ . . يأتيني من طريق ، ويوسوس . ترىٰ : كيف ستكون النتيجة ؟! وإلىٰ أين سيؤول [بي] الأمر ؟ !

يُدخل في الأعمال . . الرِّياء .

إذا سَلِمَت الأعمال من الرياء . . فإنه يُدخل العُجْب .

إنّه يُضيّع عالماً ذا قدر من العلم . . عن طريق حبّ الدنيا . والله [تعالى] يقول عن أمثال هذا العالم : « قطّاع طريق » ديني .

وهو يضيّع الموعظة بحبّ الاطراء والمديح ، فيكون هذا [المديح والاطراء] هو المقصود . . فتَضيع [عندئذٍ الموعظة] .

أتأمّل . . فأجد أنه قد أضاع منّي كلّ شيء .

إنّ يدي ـ من كلّ جانب ـ قصيرة [عاجزة] . . وعلىٰ الآخرين أن يلاحظوا حالة أنفسهم .

بيد أنّ لي أملاً . . إنْ لم يكن ثمّة غرور ـ إنّ شاء الله . أنّ هذا الشقيّ يقضي علىٰ كلّ الآمال . . بالغرور .

أجَلْ . . أملي بسيّد الشهداء (صلوات الله عليه) ـ إنْ شاء الله .

إنّ الأمل يأتي ـ فيما يتصل بالوسائل الخاصّة العائدة إلىٰ سيّد الشهداء [عليه السلام] ـ من عدّة جهات :

إعلمْ أولاً أنّ قبول الأعمال والثواب عليها يحتاج إلىٰ قابليّة [واستعداد] . وما ثمّة عمل ومن دون حساب القابليّة ومن دون شروط . لَو

شربتَ ـ مثلاً ـ شراب « السَّكنجَبِن »[١] وتناولت « الهَريسة »[٢] في اليوم نفسه لفقد هذا الشراب أثره ، إذ هو يؤثر في رفع « الصّفراء »[٣] . . لكنّ شرطه قد تخلّف بأكل الهريسة ، ففقد أثره ، بل غدا له تأثير ضارّ وهكذا أعمال الخير . . فإنها كذلك .

وإذا عرفتَ هذا أقول : رغم أنّي لا قابليّة عندي لِما ورد من ثواب البكاء وزيارة سيّد الشهداء . . إلاّ أنّ الأمل الذي أؤمّله له أثر قوي . . في غاية القوّة ومهما كان تأثيره قليلاً . . فإنّه يكفيني .

ورد ـ مثلاً ـ في ثواب الزيارة أنّ مقام الزائر يبلغ إلى حدّ أن يقال له ، في القيامة : علاوة علىٰ أنك من الناجين . . فٱشفعْ لناس من عشرة إلى مئة ـ حسب اختلاف الدرجات ـ فانّ شفاعتك لهم مقبولة .

وهناك درجة أرقىٰ من هذا المقام . . إذ يقال له في القيامة : خُذْ بيد من أحببتَ وٱدْخُل الجنّة !

ولكنّ . . أين أنا من هذه القابليّة ؟ ! أنّىٰ لعاصٍ شقيّ مثلي أن يكون لائقاً للمخاطبة بهذا الخطاب : « خُذْ بيدِ مَنْ أحببتَ وٱدخل ٱلجنّة » ؟ ! إنّ أملي ـ إذا لم أحصل علىٰ هذا المقام ، وفتحتُ لنفسي سبعة أبواب جهنّم فأحاطت بي نار جهنّم ـ أن أتمسّك بالبكاء علىٰ الحسين [عليه السلام] وبزيارته . . فانه ينجيني من الخلود في جهنّم . ولسوف أقنع بهذا المقام .

ومن جملة آثار الزيارة . . أنّ مقام الزائر يبلغ إلىٰ حدّ أن يقال له : كُنْ أنت أيضاً من سُقاة الكوثر . ارتوِ أنت . . وٱسْقِ الآخرين .

ولكنّ . . أين أنا من هذه القابليّة ؟ ! لا والله !

---

(١) السّكنجبين : شراب يُحضّر من الخلّ والسّكّر .
(٢) الهريسة : طعام يُصنع من خليط مهروس جيداً من القمح واللحم الخالي من العظم ، ويؤكل باضافة السّكّر والقرفة (الدارصينيّ) والسمنة اليه .
(٣) مرض له صلة بكيس الصفراء والكبد .

رجائي في زيارة الحسين [صلوات الله عليه] أن يسقيني من الماء ما لا أظمأ بعده في القيامة . وأدَعُ هذا أيضاً ، لأكون اكثر قناعة ؛ لأنّ في القيامة موضعاً يرضىٰ فيه الإنسان بالظمأ . إنّ بعض المجرمين الذين هم مصداق هذه الآية : ﴿ وإنْ يَسْتَغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْل . . ﴾ . . إذا قالوا : « الماء ! » يؤتىٰ لهم بماء من النحاس المنصهر . . فأنا أقنع بأن أظلّ ظامئاً علىٰ أن أؤتىٰ بهذا الماء !

ومن ضمن هذه الآثار [للزيارة] أن درجة بعضهم تصل إلى أن يجلس علىٰ مائدة رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) ويطْعَم منها . أمّا أنا . . فاني أقنع يوم القيامة بألّا أُطْعَم الزّقّوم .

هذه جهة من جهات أملي بسيّد الشهداء ؛ فانّ لهذه الآثار من القوة التي مهما تضاءلتْ وصغرت ـ ونحن لسنا أهلاً لها ـ فانّ القليل منها يكفي .

* * *

أمس ذكرت . . أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) قد مرّ ـ في عالم الحقيقة ـ من صحراء النجف ، وطلب النُّصرة ـ حتّىٰ منكم أنتم . . فذهبتم إن شاء الله لنصرته .

أَجَلْ . . إنّها لمصيبة أخرىٰ أن يمرّ الإمام [عليه السلام] من علىٰ بُعد فرسخ من النجف ، لكنّه لا يذهب ـ في عالم الظاهر ـ إلىٰ زيارة قبر أبيه العظيم . . ولن يَدَعوه يذهب . لقد كان قبر [أمير المؤمنين عليه السلام] في ذلك الوقت مخفيّ المكان ، وما كان في ظهوره خلال حكم بني أميّة من مصلحة ؛ إذ دُفن [صلوات الله عليه] ليلاً وعُميَ موضع قبره . وقد ظهر أمره بعد انقضاء حكم أولئك الأشقياء ، وانتقال الخلافة الظاهريّة الظالمة إلىٰ بني العباس . من أجل هذا لم يقصده [أبو عبد الله] الحسين . وعلىٰ فرض أنّ مزاره كان ظاهراً في العلن . . أتراهم يَدَعون الإمام يقصد قبر والده لزيارته ؟ !

أَجَلْ . . لقد طرق استنصاره ـ إن شاء الله ـ اسماع قلوبكم . . وذهبتم لمتابعته .

عصر أمس . . دخل كربلاء . وبعد السؤال عن هذه الأرض ، والجواب أنّها « كربلاء » . . قال :

« هذا موضعُ كَرْبٍ وبلاء . هاهنا مُناخ ركابنا ، ومَحَطّ رِحالنا ، ومَقتل رجالنا ، ومَسْفَك دمائنا » .

قالت له [أخته] أمّ كلثوم : يا أخي . . هذه أرضُ هولٍ ، يضطرب لها القلب !

قال الإمام : لمّا كنتُ مع أبـي إلىٰ صِفّين . . وصلنا إلى هذه الأرض . وبعد أن تَرَجَّلْنا . . نام قليلاً إلىٰ جوار أخي ، ثمّ أفاق . . وشرع يبكي . سأله أخي ، فقال :

رأيت في المنام أنّ هذه الصحراء بحر من الدم ، والحسين في وسط بحر الدم هذا يفحص بِيَدَيْه ورِجْلَيْه . . ولا أحد يعينه .

ثمّ قال لي : كيف تكون يا أبا عبد الله . . إذا وقعت هاهنا الواقعة ؟

فقلت : أصبر .

* * *

اليوم . . ثالث المحرّم .

اليوم أوّل يوم صار كربلائياً فيه « صاحبُ كربلاء » .

هذا « الكربلائيّ » الذي قال في المدينة : أمضي إلى الموضع الذي أُدْفَن فيه .

إذَنْ . . جاء الإمام إلى كربلاء ، ليُدْفن فيها . ومن هذا يبدو لك ـ إذا تفطّنت ـ أن أحوال الدنيا مهما كانت رخيّة ناعمة فهي بلا يُمن .

اليوم ذهبوا . . إن شاء الله ، وذهبنا ـ في عالم المعنىٰ . لا أدري ما أقول لدىٰ أوّل حلولهم [هذا المنزل] !أأقول : مبارك هذا المنزل الجديد ؟ ! لا أستطيع قول هذا .

الآن ـ وقد ذهبتم في عالم المعنى ـ استحضروا حالته : في هذه الصحراء المقفرة كان معه ما يقارب مئتين أو ثلاثمئة من العيال . . رجالاً ونساءً وأطفالاً . . من أصحابه ومن أهل بيته . وفي قبالتهم : عسكر متّصل يتوافد . . **لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم** .

لو كنتم هنالك . . لرأيتم ثلاث وقائع . ولا أدري . . أأستطيع قول هذه الوقائع الثلاث . . أم لا ؟ !

إحداها . . أن الإمام قد نصب خيمة ، وجمع فيها كل أصحابه ـ من دون أهل البيت ـ لبيان مصلحة ؛ ليستبين مدىٰ وفاء هؤلاء الأصحاب ، وليتمّ عليهم الحجّة ، وليجدّدوا البيعة . . فانّ هذا الجهاد يتطلب بيعتين ، يتطلب بيعة خاصّة . . من غير المعهود في الجهاد . قال :

« يا أصحابي ، اعلموا أنّ الدنيا قد أدبرتْ . فإذا تبعتموني لفتح تظنونه فانّ الأمر ليس كذلك ليس إلاّ القتل . لا أغرّ أحداً . من تبعنا طمعاً في الفتح والمال فهو في حِل من بيعتي . . . . » .

أنظرْ . . أيّ أصحاب كانوا ، ولاحظْ مدىٰ وفائهم !

نهض كلّ منهم . . وأجاب منهم : زهير . . الذي اهتدىٰ آنِفاً . ويقال : إن زهيراً عندما كان طفلاً . . ويمرّ النبيّ في الطريق . . يجده يلعب ، فيحمله رسول الله (صلى الله عليه واله) ويقبّله ، ويلاطفه ، فقيل له : من هذا [يا رسول الله] ؟

قال [صلّىٰ الله عليه وآله] : هذا طفل يحبّ الحسين كثيراً . رأيته يوماً يلعب مع الحسين ، فيأخذ التراب من تحت قدم الحسين ويقبّله . وقد أخبرني جبرئيل أنّه سينصره في كربلاء .

أجَلْ . . قال [زهير] : يا بن رسول الله . . تنكّرت لك الدنيا ؟ ! لو كانت الدنيا ـ والله ـ لنا باقية ، وكُنّا فيها مخلّدين . . لآثرنا النهوض معك علىٰ الإقامة .

وقال بُرَيْـر : ما عسـاني أقول يـا بن رسول الله ؟! أتـرانا يشقّ علينـا أن نفـديك بنفس واحـدة ؟ ! والله . . لَوددتُ أني قُتِلت ثمّ نُشِـرت ، ثمّ قُتِلـت حتىٰ أُقْتَل هكذا ألف مرّة . . وأنّ الله (جلّ وعزّ) يدفع بذلك القتلَ عن نفسك وعن أنْفُس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك !

أمّا محمّد بن بشر الحَضْرَميّ . . فانّه ـ في مثل هذا اليوم ـ بَلَغه أنّ وَلَده قد أُسِرَ بيد الكفّار [في أحد الثغور] . فأعطاه الإمام أثواباً وبُروداً قيمتهـا ألف دينار ، ليسعىٰ في فكاك ولده . فقال محمـد بن بشر الحضـرميّ : أأسعىٰ في فكاك ولدي من الأسر . . وأتركك تؤسَر ؟! أكَلَتْني السِّباع حيّاً . . إن فارقتك !

* * *

ثمّة حادثة أخرى . . وقعت هذا اليوم :

كان السيد المظلوم ـ اليوم ـ جالساً في خيمة الجلال . . إذ جاءه سهم له ألف شُعْبة ! جاءه من بُعْد اَثْني عشر فرسخاً . . وتمكّن من قلبه [صلوات الله عليه] .

يا إخوتي . . إنّ أقصىٰ ما لكلّ سهم من السِّهام أن تكون له ثلاث شُعَب أو أربع . ولكنّ هذا السّهم له ألف شعبة !

أتقول : ما سمعنا بمثل هذا ! أوّل مرّة يطرق أسماعنا ! فأقول ! إنّ لهذا الكلام معناه :

السّهم ذو الألف شعبة الذي انطلق من مسافة اثني عشر فرسخاً . . إنما هو رسالة جاءت اليوم من ابن زياد الملعون (ضاعف الله عذابه) . وصل رسوله حاملاً الرسالة ، وسلّمها إلىٰ الإمام . كانت خالية من السّلام . فتحها الإمام :

من ابن مرجانة . . الخبيث .

أُفٍّ لكِ أيّتها الدنيا ، وأُفٍّ لعزّتك !

إنّ الاغترار بالدنيا يبلغ بصاحبه إلىٰ درجةٍ أن يكتب ذلك الملعون أشقىٰ الأوّلين والآخرين إلى حجّة الله : « أمّا بَعْد . . فقد بلغني نزولـك بكربـلاء .

وقد كتب لي أمير المؤمنين يزيد ـ لعنه الله ـ ألاّ أتوسّد الوثير ، ولا أشبع من الخمير . . . [أو ألحقك باللطيف الخبير ، أو ترجع إلىٰ حكمي وحكم يزيد بن معاوية] . . إلىٰ آخر ما كتبه اللّعين » .

وكما يُقْبِل السهم ذو الألف شعبة ويستقرّ في قلب الإمام . . قرأ الرسالة ، فتأثر الإمام [عليه السلام] ، ورماها من يده .

قال رسول ابن زياد : جواب الكتاب . . يا أبا عبد الله !

قال [عليه السلام] : **لقد حقّتْ عليه كلمة العذاب .**

* * *

وسهم آخر . . هو أشدّ من كلّ السّهام .

طالما اعترض بعض الجَهَلة قائلين : لو كان الإمام قد فعل ما فعله سائر الأئمة (عليهم السلام) . . فما كان يضرّه ؟ ! ففي ذلك سلامته وسلامة أصحابه .

فأقول : من هذه العبارة [التي تريدون] يبدو ـ أضافة إلىٰ المفاسد الكلّيّة ـ أنّ الإمام لم يكن راضياً بالقدر ! يريدون للإمام أن يكون عبداً لحكمهم ! وبَدَل هذا . . كان مناسباً أن يقال هنا للإمام :

سيّدي يا أبا عبد الله . . بكتاب ابن مرجانة انغرز في قلبك المبارك سهم له ألف شعبة ، ولم يخرج من قلبك المبارك . . فتأثّرت ، وألقيتَ كتاب ذلك الملعون علىٰ الأرض ، ولم تكتب له جواباً . . فلديك تستوي الحياة والموت . ولست أدري ما أصابك لمّا أدخلوا رأسك المبارك إلىٰ مجلس ذلك الملعون . كان الشقيّ علىٰ كرسيّ [الحُكم] . . فَوُضع رأسك المقدّس علىٰ الأرض . .

كانت في يد ذلك المعلون . . عصا . ولكنّي لا أقول ما فعل ! !

ومصيبة أخرىٰ . . لا أدري ما يحدث لدىٰ ذكرها . أشدّ من كلّ هذه المصائب : ما إن نظر ذلك الملعون إلىٰ الرأس المقدّس . . حتىٰ أخذ في

الضحك ، وقال : الحمد لله الذي فضحكم !

فَضَّ الله فاه !

إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنْقَلب ينقلبون .



رابع الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

اللهمّ . . وبحمدك يا ذا العَظمة والجلال ، يا مَلِك ، يا موجد ، يا مُتَعال . يا مَن خَرَق علمُه باطنَ السّتَرات ، وأحاط بغموض حقائق الخفيات ، وخلَقَ ما خَلَق من دون إعمالِ الرَّوِيّات ، وسَبّحتْ لِعِظَم سَلْطنتِه ملائكةُ السماوات ، وأحصىٰ عدد الأحياء والأموات .

نَحْمدك علىٰ نعمائك العِظام ، ونشكرك علىٰ مِنَنك الجِسام .

ونصلّي ونسلّم علىٰ نبيّك محمّد ، نبيّ الرحمة وإمام الأمة ، المُنتَجب من طينة الكرم وسلالة المجد الأقدم . وعلىٰ أهل بيته : أئمّة الأنام ، ومصابيح الظلام ، وينابيع الأحكام ، والدعاة إلىٰ دار السّلام . عليهم من الله أفضل التحيّة والسّلام . . ما توالت الليالي والأيام .

حكايتي معكم . . حول ذلك الظالم الذي ذكرت أمس أنّه قابض علىٰ تلابيبنا . . لا أدري الىٰ أين ستصل ؟ ! وكيف ستكون ؟ !

ترىٰ . . إلىٰ متىٰ ونحن مُبْتَلَوْن بهذا الظالم ؟ ! وإلىٰ متىٰ لا يستجاب دعاؤنا : « **اللهمّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا** » ؟ !

ليلاً ونهاراً قيادك بيد هذا الظالم الذي هو « النفس الأمّـارة » ، ولم تتنبّه إلىٰ ما فعله بك هذا الذي لا مروءة له . . من أوّل عمرك حتّىٰ الآن !

أتراه شيئاً حَسَناً أن يظلّ قيادك بيد هذا الظالم . . حتىٰ لحظة الموت ؟ !

في منتصف إحدىٰ الليالي . . جعـل رسول الله (صلّىٰ الله عليـه وآله) وجهـه المبارك علىٰ الأرض ، وأخـذ يبكي . . حتّىٰ ابتلّت الأرض . تقول أم سَلَمة :ـ كان جُلّ دعائه : « **إلٰهي . . لا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفةَ عينٍ أبدا** » .

هكذا كان يدعو النبي (صلّى الله عليه وآله) ! وأنا وأنتم ـ من أوّل العمر حتىٰ يوم مماتنا ـ ما انفككنـا [من قبضة أنفسنـا] طرفـة عين ! فكيف سيؤول أمرنا ؟ !

كان دعاء النبيّ : « **إلٰهي . . لا تكلني إلىٰ نفسي . .** » . وأنت ـ حتىٰ الآن ـ ما أفْلَتّ من نفسك طرفة عين !

أمّـا الشباب . . فقـد سُلِب منك . ولا أدري أتبلغ الشيخـوخة أم انهـا تُسْلب منك كذلك ؟ !

لا أنت [عملت] في ربيع [عمرك] « أداءً » ، ولا أنت [عملت] في الخريف « قضاءً » ! لا تقرّبت بأُضحية الشباب ، ولا بأُضحية المشيب ! أتراك أجّلْتَها إلىٰ وقت احتضارك ؟ !

يقال إنّ أحد العُبّاد الزُّهاد . . أحاط به أهله في ساعة موته . فكان كـلّ منهم يبكي . كان كلّ منهم يبكي لنفسه ؛ لأنّ [هذا الذي يريد أن يرحل] كان الخادم والحمّال والكادح لهم . أمّا وأنّهم سـوف يفقدونـه فلهذا كـانوا يبكـون وينوحون .

وتفطّنَ العابد إلىٰ [سرّ] بكائهم ، فسألهم : لِمَ تبكون ؟ قالت واحدة : أترمّل بعدكِ وأظلّ بلا زوج ! قالت غيرها : لا كافل لأمري بَعْدك ! وكان جواب ثالث : أنت ظهري وملجئي . وقال غيره : بَعْدك . . من يترفّق بي ويتعـطّف عليّ ؟ ! وعلىٰ هذا النّسَق . . كانت الاجابات .

أدرك العـابد المسـألة ، فصـاح بهم : قومـوا . . وَوَلُّـوا عنّي ! دعـوني بحالي . ما رأيت أحداً منكم يبكي عَليّ : ما سيجـري عليك وأنت تنتقـل من هذا العالم إلى ذلك العالم ؟ ! إلىٰ أين ستؤول أمورك ؟ !

أجل ، [لم يكن أحد منهم] كأبي ذرّ . . ؛ فقد ورد في الخبر أنّ ولده قد مات ، فذهب إلىٰ قبره ، وقال : كنتَ راضياً عنك يا ولـدي . . رضيَ الله عنك ! أنا لا آسىٰ لك ولا أحزن عليك ، ولكنّ ما يشغلني هو ما سيجري عليك هناك ، وما سيقولون لك ويصنعون بك !

نعم ، قال ذلك [العابد] : اذهبـوا ودعوني أبكي علىٰ نفسي . . فـلا أدري أيّ صوت سيبلغ أُذني . أهو صـوت « **فلا تخـافوا ولا تحـزنوا** » . . أم صوت « **لا بشرىٰ يومئذٍ للمجرمين** » ؟ !

يـا هذا . . عمـرك كلّه مشغول بـالـدنيـا : تسعىٰ إلىٰ « وصـالهـا » في حياتك ، وتغتمّ لـ « فراقها » عند وفاتك . إذَنْ : ما صِلَتُك بالله ؟ ! وأيّ سبيل لك اليه ؟ !

قلت أمس : إنّ هذا الظالم لا يَدَعُك تتفقد شأن نفسك . فانْ لم تكن من أهل الطاعة . . فهلّا اعتذرتَ ـ في الأقلّ ـ عن التقصير ؟ !

في عدّة مواضع من دعاء « كُمَيْـل » كان أميـر المؤمنين (عليه السـلام) يعلّم الشيعة ، ويدلّهم علىٰ سبيل الاعتذار عن التقصير ، ويعرّفهم طريقة طلب العذر من المحضر الالهيّ .

أَلَكَ إقبال علىٰ أن تعتذر بهذه الفِقْرات . . أمْ ترىٰ اعتذارك هذا سيكون من كاذب الاعتذار ؟ !

يقول : « **وقد أتيتك ـ يا إلهي ـ بعد تقصيري واسـرافي على نفسي . . معتذراً نادماً** » .

أُصْدقْ في فقرة من هذه الفقرات . . واعتذرْ بها . لا تكذِبْ ـ في الأقلّ ـ في وقت الاعتذار ! الكذب لا يصنع شيئاً . ولن يتمّ أمر آخرتك ـ بكلّ ما له من

عظمة وجلال ـ بهذه الحِيَل .

في اعتذار آخر . . يقول : « أتراكَ مُعَذِّبي بنارِك بَعْدَ توحيـدك ، وبَعْد صِدْقِ اعترافي ودعائي خاضعاً لربوبيّتك » ؟ !

ويقول : « أتسلّط النارَ علىٰ وجوهٍ خرَّتْ لِعَظَمتك ساجدة » ؟ !

أتراكَ حين تنطق بهـذا . . تنطق صـادقاً ؟ ! أتـراكَ سجدتَ لحـدّ الآن سجدة واحدة « لِعَظَمَته » ؟ ! أرأيته عظيماً حقّاً . . أمّ جعلتَه « أهْوَنَ الناظرين وأخَفَّ المطّلعين » ؟ !

« . . وعلىٰ ألْسُنٍ نَطَقتْ بتوحيدك صادقة » ؟ !

تفكَّرْ هنا : أقلت « لا إلٰهَ إلاّ الله » علىٰ وجه الصدق [والحقّ]؟ !

« . . وعلىٰ قلوبٍ آعترفتْ بالهيّتك مُحَقِّقة » ؟ !

أتراكَ صادقاً في الاعتذار على الطاعة والعبادة التي أفلتتْ من يديك ؟ !
قلتُ : لو أنّ هذا الظالم يَدَع الناس يخشون عاقبة أمرهم . . لكن شيئاً حسناً لكنّه لا يدعهم ، بل يقول لهم : إيّاكم أن تخافوا .

والآن . . قولوا الحقّ : إذا لم يكن لديكم تعظيم لله ، ولا عبادة ، ولا عذر ـ أيّها المقصِّرون ـ أفلا تكون لكم خشية منه ؟ !

أمس قلت أيضاً أن فكِّرْ في منزلك الأوّل . قُلْ : سأروح إلىٰ القبر ، ولا أدري : أهو روضة من رياض الجنّة . . أمّ حفرة من حُفَر النار ؟ !

القبـر قبران . والكفن كـذلك كَفَنـان : أوّلهمـا حلّة من حُلَل الجِنـان ، والثاني : سرابيل النيران .

خفْ ـ أقلاًّ ـ من أنّك لا تدري بأيّ الحالتين ستكون . ولا تـدري كيف سيكون مصيرك مع المَلَكين .

خفْ [من هذا] : كيف سيكون حالي مع مَلَكي القبر : مُنْكر ونَكير ؟ ! ماذا أعددت لهما من جواب ؟ ! وبأيّة حـالة [عنّي] سينصـرفان ؟ ! ومـا شأن

المَلَك « رُومان » فتّان القبور ؟ ! وعمّ سوف يسألني ؟ !

« رومان » فتّان القبور ـ الذي يصلّي عليه السيّد السجّاد في أحد أدعية الصحيفة [السجّاديّة] ـ يأتي من أجل [أحد] أمرين : إمّا لتوسعة القبر ـ كلٌّ على حسب عمله ـ فيفتح للقبر باباً يدخل منه نسيم الجنة . وإما أن يأتي ليضيّق القبر ، ويفتح عليه باباً من جهنّم . . تدخلُ منه [رياح] السَّموم .

في الأقل . . لنخفّ من هذا : كيف سيأتي ؟ ! وماذا سيكون ؟ !

فكِّرْ هكذا : بعد أن دفنوني وجعلوا وجهي باتّجاه القِبلة . . لا أدري : أيدعه هذان الملكان نحو القبلة . . أمّ يحوّلانه عنها ، قائلَيْن : ما شأنك أنت بالقبلة ؟ !

من المستبعد أن يحدث لك هذا ! [هكذا تقول الآن] ! وتقول : هذه الأمور ليست لي أنا !

الملكان الآخران . . لا أدري ما سيكون شأنهما معي . أعني الملكين اللذين يكتبان الحسنات والسيئات ، في قول الله [تعالىٰ] : « عن اليمين وعن الشمال قَعيد » !

أسَفاً ـ يا غافل ـ ألّا يتقاضىٰ كاتب سيّئاتك منك أجرة الكتابة ولا يطالبك بها ! فانّه إذا طالبك بالأجرة وتقاضىٰ منك ـ عن كلّ سيئة نصف قرش ـ لاستبان لك إذَنْ مقدار الذنوب التي ترتكبها كلّ يوم . . آلافاً !

عمل هذين الملكين علىٰ نحوَيْن . أحدهما : أنهما يرفعان رقعة مطويّة ، فيها : « ربَّنا . . لقد فارق عبدك الدنيا » . فإذا كان هذا الميّت مؤمناً . . فإنّ الخطاب يأتي ـ كما في الحديث : « اذهبا عند قبره ، وصَلّيا نيابةً عنه . . حتّىٰ يوم القيامة » .

ترىٰ . . أهكذا سيكون حالنا . . أمْ أنهما سيكتبان ـ بعد وفاتنا أيضاً ـ الوِزْر والوَبال ؟ ! إنّ كتابة سيئات بعض الناس تدوم وهم في عالم البرزخ . . من مثل المُبْتَدِع ، ومثل من اغتصب مال غيره وبقي لورثته يتصرّفون فيه ـ لو

أنّهم معذورون ! ومن مثل الكاذب في الدِّين . إنّ الأمر كما قال (تعالىٰ) : ﴿ ونكتُبُ ما قَدّموا وآثارَهم ﴾ .

لست أدري . . بأيّ هذين النحوين سيعاملنا الملكان ! فليكن لك خوف ـ في الأقلّ !

أقول لهذا الظالم الشقيّ : لديّ كلام آخر . قال الله (تعالىٰ) في كلامه : « يا أيُّها الّذينَ آمَنوا آتّقوا الله وآبْتَغُوا إليهِ آلوَسيلةَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُون » .

« لعلكم . . » في الآية تفيد الترجّي . . من اجل ازالة الغرور عمّن يصيبهم الغرور .

يقول : « لَعَلّكم . . » لئلّا يغترّ أهل الطاعة بطاعتهم ، ولئلّا يجزموا بنجاتهم !

أقول لهذا الظالم إجمالاً : كلّا الوسائل قد اختطفتَها من يديّ . . فَدَع الوسيلة العظمىٰ . . التي هي « الوسيلة الحسينيّة » ! أتوسّل اليه : أنْ دَع لي إحدىٰ الوسائل الحسينيّة . . لتكون وسيلتي !

***

اليوم أريد أن أعدّد « الوسائل الحسينيّة » . كثيرة هي في العدد . هي أكثر من كلّ ما أقول . ولكنّ لهذه الوسائل خصوصيّة . . وليكن في علمك أنّ ليس من هذه الوسائل « معصية الله » ! ليس منها العُود والطُّنْبور !

لقد بلغ الحال [بالناس] ألّا يجدي فيهم ما أقول . وانما اقوله إتماماً للحجّة . . ذلك أنّ النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) قال : « إذا ظهرت البِدَع فعلىٰ العالِم أن يُظْهِر علمه ، وإلّا فعليه لعنة الله » .

أجل . . لو أردت أن أحصي « الوسائل الحسينية » وأذكر خصوصياتها . . لطال بنا المقام ؛ فهي لا تُسْتَوفىٰ في يوم واحد . ويأتي ذكرها تباعاً ـ إنّ شاء الله .

وآعلم أنّ بعض هذه الوسائل مشتركة بين الأئمة [عليهم السلام]

جميعاً . وبعضها يختصّ بسيّد الشهداء (عليه السلام) .

من الوسائل مثلاً : « المحبّة الحسينيّة » . وللأئمة كافة هذه الوسيلة كذلك « زيارة الحسين » (عليه السلام) . . من الوسائل . والأئمة أيضاً زيارة .

من الوسائل ـ إذن ـ ما هو مشترك . ومنها ما هو مختصّ به لا يشركه فيه أحد .

من وسائل الإمام الحسين (عليه السلام) : « سقي الماء » . وهذا مختصّ به [عليه السلام] . . فما ثمة أحد من الائمة والأنبياء قد قُتل عطشاناً . وما مضى أحد منهم على ظمأ .

من الوسائل « استغاثة » سيّد الشهداء و« اغاثته » . . فهي ممّا يختصّ به ؛ ذلك أنّه ما قُتِل أحد منهم في الميدان حتىٰ تصدر منه استغاثة . أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) استُشهد في المحراب . والأئمة الآخرون قُتلوا في مواضع مختلفة .

من جملة الوسائل ـ مثلاً :تجهيز الإمام . أي أن يتمّ تجهيزه باحترام وتوقير ؛ فكلّ إمام ونبيّ ـ ولو أنّ تقصيراً كان في بدء تجهيزه ـ قد تمّ تجهيزه بعزّة .

الإمام الرضا (عليه السلام) ـ مثلاً ـ كان تجهزه هكذا : جاء المأمون الملعون وكلّ أهل البلدة وجهّزوه بذلكم الاحترام . الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) . . كان أول تجهيزه بغير توقير ولا احترام . . ثمّ كان آخره باحترام . الوحيد الذي ما كان تجهيزه بتوقير هو الإمام الحسين (عليه السلام) . أمّا الآن . . فيمكن لنا أن نجهّزه ؛ لأنّه لم يظل جسد إمام [من الأئمة] ثلاثة أيام بلياليها مطروحاً علىٰ الأرض عرياناً .

* * *

قلت : إنّ بعض الأشياء مشتركة . لكني أريد أن أخلص بالقول الى كلام آخر ، فأقول : ليس لسيد الشهداء (عليه السلام) أشياء مشتركة .

مثلاً : إنّ زيارة النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) مستحبّة . . وهي أفضل الزيارات . وكذا زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) . لكنّ زيارة سيّد الشهداء (عليه السلام) لها خصوصيّة في كيفيّة الزيارة لا يشترك فيها معه أحد . . وذلك من عدة جهات :

إحداها : أنّك تقول في زيارة النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) : « **السلام عليك يا نبيَّ الله ، يا خاتمَ النبيّين . . . .** » . وهكذا تذكره بصفاته المتعلّقة باسمه ولقبه . أمّا السلام علىٰ سيّد الشهداء (عليه السلام) فهو علىٰ طور آخر : تسلّم عليه . . تسلّم علىٰ رأسه المقطوع . . تسلّم على صدره المرضوض . . تسلّم على بدنه . . تسلّم على محاسنه المخضّبة بالدماء . . تسلّم علىٰ بدنه العاري [السّليب] . . تسلّم علىٰ رأسه المرفوع علىٰ الرمح . .

والسلام علىٰ دمائه . . له أقسام :

سلام علىٰ الدم الذي أُريق على الأرض .

سلام علىٰ الدم الذي صبغ جناح الحمامة .

سلام على الدم الذي جمعه المَلَك في قارورة .

سلام علىٰ الدم الذي ضمّخ وجه أخته .

سلام علىٰ الدم الذي صار خِضاباً لمحاسنه .

وإذَنْ . . فكلّ ما كان لسيّد الشهداء ـ من الاربعين أو الخمسين وسيلة التي أتيتُ بها ـ ما له في واحدة منها من شريك .

حتّىٰ في المحبّة ـ ومحبّة كلّ الأئمة لازمة يقيناً . . أمّا محبّة الحسين (عليه السلام) فانّ لها خصوصيّة خاصة . وخصوصيّاتها بعدد الوسائل .

* * *

لو ذهبتَ اليوم إلى كربلاء . . لوجدتَ أنّ للإمام « **استغاثة** » . ومن هذا

ـ كما ورد في إحدىٰ الزيارات ـ كان عليك أن تقول : « لبَّيْكَ داعيَ الله » . . سبع مرّات .

ولهذا مغزاه . فكما أنك في زيارة « المُصافَقَة » لهذا المظلوم [تَصْفُق يَدَك . .] وكأنّك تبايع الإمام الآن . . فكذلك هذه التَّلْبيات السبع هي جواب لسبع استغاثات صدرت من الإمام .

وهذه الاستغاثة غير مختصّة بأهل ذلك الزمان ؛ فهو قد استغاث بنا نحن أيضاً . وقولنا : « لبَّيك » هو اجابة لهذه الاستغاثة . لقد قال الإمام [عليه السلام] لِعُبَيْد الله بن الحرّ الجُعْفيّ : « **إيّاك أن تسمع استغاثتنا ثمّ لا تنصرنا** » وإذا لم تُجِبْ أنت [الآن] فانّ حكمك يكون حكم الجُعْفيّ هذا الذي كان مسلوب السعادة . ومسألة السعادة أو سلب السعادة انما منبعها من مكان آخر . فأنت ترىٰ من يتسلّل من عسكر ابن سعد ليلة عاشوراء ويلتحق بأصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) ، فيفوز بالنجاة الأبديّة . ينبغي لك [إذَنْ] أن تخشىٰ عاقبة الأمور !

هرثمة . . كان من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) . آلَ أمره أن غدا ـ يوم « عاشوراء » ـ من أصحاب عمر بن سعد . يقول هرثمة : كنت في أحد الأسفار . . مع أمير المؤمنين (عليه السلام) . وبلغ الإمام موضعاً فيه شجرة ، فتناول شيئاً من التراب ، فشمّه . . وقال : « **واهاً لكِ أيّتها التربة ! ليحشرنّ منك أقوام يدخلون الجنّة بغير حساب** » .

(يقول بعضهم ـ استناداً إلى هذا ـ انّ الحساب يُرْفع عمّن يُدْفن في كربلاء ، مستفيداً من هذا أنّه لا حساب على المدفون في كربلاء) .

يقول هرثمة : لم أفهم في حينها مراد الإمام .

حتّىٰ إذا انسلخت سنوات ، وأدركت هرثمة الشقاوة . . صار في صف أصحاب عمر .

يقول : كنت راكباً يوم عاشوراء . . فرأيت تلكم الشجرة . وعرفت هذه

الأرض بدلالة الشجرة .

يقول : فقلت للإمام الحسين (عليه السلام) : يا بن رسول الله . . كنت مع أبيك لمّا وصلنا إلىٰ هذه الأرض ، وقال أبوك كذا وكذا . .

فقال الإمام المظلوم : « أعرفُ ذلك يا هرثمة » ! ولكنّ . . ما أنت صانع؟ أتكون لنا أَمْ علينا؟ قال هذا المسلوب السعادة : إنّ لي عيالاً وأولاداً ، وأخاف من ابن زياد ! وأتىٰ بعذر مردود . ومثلما قال الإمام لعبيد الله بن الحرّ الجُعفيّ : « لا تبقَ في هذه الأرض » . . قال لهرثمة :

« ان استطعت فلا تمكث في هذه الأرض ، واذهب . . لئلّا تسمع واعِيَتنا » .

وحتّىٰ الآن . . ما يزال صوت الواعية مرتفعاً . أتراكم تسمعونه أم لا تسمعون؟ !إنّ هذا الصوت يريد جواباً ، ويريد نُصْرة .

***

قلت : نذهب . . نتعرّف علىٰ حالة الإمام .

ذهبنا . . فرأينا :

بضعة خيام . . في صحراء مقفرة .

في هذه الأيام القلائل يحدث ـ أحياناً ـ أن يأتي بضعة أفراد من طريق الكوفة ، مُسْتَخْفين ، ويلتحقون بالإمام .

واعلَمْ أنّ من كان بالكوفة وسمع حكاية الإمام الحسين (عليه السلام) ، وما جاء لنصرته . . فهو شقيّ ملعون . وكذا كلّ من تخلّف عنه ـ إلاّ إذا كان له عذر شرعيّ . وهذا هو الذي سأل الراوي عنه الإمامَ المعصوم (عليه السلام) وذكر أسماء أشخاص . . فقال له : لا تذكر أسماء .

كان يأتي أحياناً ـ في اليوم ـ رجل . . أو اثنان . . أو ثلاثة . أمّا في جانب ابن زياد (عليه اللعنة) فكان يتوافد باستمرار ألفان . . ثلاثة آلاف . . أربعة آلاف . . صباحاً ومساءً . وفي مثل هذا اليوم وصل الحُصَيْن بن نُمَيْر مع

عدّة آلاف . وجاء يزيد بن ركاب الكَلْبيّ ومعه آلاف .

الآن . . وقد لاحظتَ ـ في عالم المعنىٰ ـ حالة الإمام . . فاعلم أنّ من الأعمال التي قام بها الإمام أنّه عَقَد مجلس عزاء .

ونحن نـريـد أن نـذهب إلى هـذا المجلس . لكنّ ليس في مقـدورنـا الدخول . علينا أن نظلّ خارجاً .

أسمعت الزيارة الجامعة ؟! كانت بكاءً جماعياً :

مضىٰ الإمـام إلى وسط الخيمة ، ونـادىٰ رجال أهـل البيت وأولادهـم . فاجتمعوا كلّهم . في الظاهر أنّ عدد أهل البيت كـان اربعين نفراً : سبعـة من إخوة الإمام ، وأبنـاء الإمام الحسن (عليـه السلام) ، وأولاد جعفـر الطيّـار ، وأولاد عبد الله بن جعفر . . في الحديث الصحيح أنّ الإمـام [الصادق عليـه السلام] قال [عن عاشوراء] : « في مثل ذلك اليوم . . تجلّت الهيجاء عن آل رسـول الله (صلّىٰ الله عليـه وآلـه وسلم) ، وانكشفت الملحمـة عنهم ، وفي الأرض منهم ثلاثون صـريعاً . . . يعـزّ علىٰ رسول الله (صلّىٰ الله عليـه وآله) مصرعهم . ولو كان في الدنيا يومئذٍ حيّاً لكان (صلوات الله عليه) هـو المعزّىٰ لهم » . الغرض من هذا أنّ هؤلاء الثلاثين كانـوا قد قُتلوا ، وبقي عشـرة ـ في الأقلّ ـ من الأطفال والأسرىٰ . . بحيث يكون المجموع أربعين . وكان أكبرهم ـ فيما يبدو ـ أبـو الفضل العبّـاس . . الذي كـان له أربـع وثلاثـون سنة . أمّـا أصغرهم [سناً] فهو ذلكم الطفل الرضيع .

لاحِظوا . . كيف كان ذلك المجلس .

جمعهم الإمام جميعاً ، وأمر باحضار النساء . . فجـاءت النساء . فمـا كان تحت تلكم الخيمة أحد من غير أهل البيت .

أصل الحديث . . كلمتان :

« **فنظر اليهم . . .** » .

أخذ الإمام ينظر اليهم ، وهم مجتمعون . أي كان أوّل ما فعل أنّه نـظر

اليهم . « وبكىٰ ساعة . . » .

لاحظ الآنَ أنّ كـلّ أهل البيت كـانوا مجتمعين تحت تلكم الخيمـة . . فـارتفع صـوت سيّد الشهـداء بالبكـاء . وفي هذه الحـالـة . . ألاّ يبكي أهـل البيت ؟ ! إذا بكىٰ الرجل . . أفـلا تبكي النساء ؟ ! وإذا رأىٰ الأطفـال النساء يبكين . . أفلا يبكون ؟ !

إذَن . . ارتفعتْ أصواتهم جميعاً بالبكاء .

في هذه الحالة . . عمل الإمام شيئين ، عليك أن تفقه مغزاهما .

لا حاجة ـ يا أخي ـ إلىٰ مَرْثيّة مصطنعـة . خُذْ كُنْـه هاتين الكلمتين . . وآمضِ بهما ، فانهما كافيتان للأحزان والأشجان حتىٰ يوم القيامة .

نظر اليهم الحسين !

لاحظْ أيّ نظرة كانت هذه النظرة ؟ !

النظرة ـ في البداية ـ كانت « نظرة الحَيْرة » . أي كان الإمام متحيِّراً بشأن هؤلاء العيال والأطفال .

ثُمّ . . « نظرة الحسرة » .

ثمّ . . « نظرة الوداع » .

لِمَ كان البكاء « ساعة » ؟ ! إنّ البكاء ساعة . . لبكاء كثير .

في هذا البكاء . . كان الإمام يستحضر صُوَراً ومشاهد . رآهم مجتمعين في خيمة واحدة، واحد إلى جوار الآخر . . فحضرت أمامه مشاهد وصور .

تحضر أمامه المشاهد . . فيبكي . إن وقائع المستقبل ماثلة أمامه .

رأىٰ أنّ هؤلاء الجمع الحاضرين في هذه الخيمة . . سوف يمسون ـ إذا قُتل هو بعد ثلاثة أيام أو أربعة ـ صرعىٰ في المقتل .

أجساد . . هنا . وأسرىٰ . . هناك !

إنا لله . . وإنّا إليه راجعون .

خامس الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تباركتَ اللهمَّ وتعاليْت . لا أُحصي ثناءً عليك . .

جَلّ عن مَطارح الفكر كمالُه ، وتقدّس عن مواقع النظر جمالُه .

يا مَلِكُ يا متعالِ ، يا ذا العظمةِ والجلال . يا موجِدَ العِلَل ، يا معبودَ كلِّ المِلَل . يا واهب حياة العالمين ، يا ناظمَ السماواتِ فوقَ الأرضين ، يا غياث المستغيثين ، يا مجيبَ دعوة المضطرّين . نَحمَدُك حمدَ الشاكرين ، ونؤمن بك ايمان المخلصين .

ونصلّي علىٰ محمد أفضل الخلائق أجمعين ، وعلىٰ عترته الأطائب المطهَّرين والسادة المنتجبين . . القائمين علىٰ المحجّة البيضاء ، والقائمين علىٰ الشريعة الغرّاء (عليهم من الله أفضلُ التحيّة والثناء . . ما دامت الأرضُ والسماء) .

قال إمامُ المخلصين وسيّد الوصيّين (.عليه أفضل صلاة المصلّين) : « عِبادٌ مخلوقون اقتداراً ، مَرْبوبون اقتساراً . . . » إلى آخر الخطبة . وعليك بـ « نهج البلاغة » .

ملخّص هذه الكلمات من قول الإمام [عليه السلام] : أنكم قد جيىء

بكم إلىٰ هذا العالم بغير اختياركم . ما من شك يخالجكم في أنكم قد أُدخلتم هذه الدنيامن دون إذن منكم . وما [سبقَ أن] قيل لكم :نريد أن نـأخذكم إلىٰ عالم الدنيا !

ومكوثكم ـ في هذا العالم ـ هو كذلك ممّا لا دخل لكم فيه ، بل انّ كلّ ما يرتبط بالبدن والخلقة ممّا لا يدخل فيه اختياركم .

« مربوبون اقتسارا » !

. . وبعد أن سلختم ثلاثين أو أربعين منٰ العمر ، ما زلتم لا تعرفون إلىٰ أيّ أجزاء البدن سيؤول الطعام الذي تأكلون . . إذ في البدن ثلاثة آلاف جزء، وأربعة آلاف قوّة .

الخبز الذي تأكلونه ـ مثلاً ـ يؤول شيء منه إلى عظم ، وجزء إلىٰ جلد ، ومقدار منه إلىٰ لحم . . ودم . . ودماغ . . وهكذا !

واكثـر من هـذا : أنّـك ـ حتى الآن ـ لم تتعـرّف علىٰ « كُنْـه » النَّفَس . فالدَّوْر الذي يقال عنه : إنّه باطل . . قد تحقّق هنا : فانك إذا لم تتنفس تغدو لا حياة لك . وإذا لم تكن لك حياة فانك لا تقدر علىٰ التنفّس !

في عينك . . جعل الله « شيئاً » بقدر حبّة العدس ، تستطيع ـ وأنت هنا ـ أن ترىٰ به « زُحَل » . . في حين أنّ المسافة بينك وبينه هي ـ في أقلّ تقدير ـ عشـرة آلاف سنـة ! إنّ بـامكـانـك ـ في طـرفـة عين ـ أن تـرىٰ كـل النجـوم [الظاهرة] . وأصغـر نجم منها اكبـر من الأرض أربع عشـرة مرّة . إنّ هـذا العَصَب الذي لا يزيد علىٰ حبّة العدس . . يشبه قطرة ندىٰ متجمدة .

حتّىٰ الآن . . أنت لا تعـرف : كيف يحـدث « التفكيـر » ، ولا كيف تنطق ، ولا كيف تسمع !

لقد جاء فلاسفة ، ومضىٰ فلاسفة . . ولم يدركوا أين موضع « التفكير » [في الانسان] . قال قائل منهم : إنّ موضعه في القلب المخلوق في الصدر . وقال غيره : موضعه في الدماغ . حتىٰ الآن أنت لم تدرك هذا « التفكير » ، كما

لم يدركه الفلاسفة !

هدف هذا أن تعرف أنّك قد جئت بلا اختيار ، وأقمت هنا بـلا اختيار ، وأنّك لا تعرف عنك شيئاً !

[وإذا علمتَ هـذا] فاعلم أيضـاً : أنّك ستؤخـذ [من هنا] بـلا اختيار منك ، وبلا مراعاة لظروفك !

كما جئتَ إلىٰ هنا دفعة واحدة . . يأخذونك ـ وأنت ترىٰ ـ دفعـة واحدة أيضاً !

الآن . . دعونا نفكّر :

أين ترانا نذهب إذا ذهبنا [من هنا] ؟ ! إلىٰ أين يأخذوننا ؟ !

وكيف هذا ؟ ! أمنزل لي هناك ؟ ! أأصدقاء ومعارف لي هناك ؟ ! أسعادة وهناءة لي هناك ؟ !

فكّرْ ـ قليلاً ـ في هذا . .

إنّ كلّ مصيبة لا يثمـر الخوف فيهـا ـ إلاّ هذه المصيبـة ؛ فللخوف فيهـا ثمرة .

لو كنتَ في طريق [لا بـدّ أن تسير فيـه] . . وكان ثمـة لصّ [يتربّص بالـمارّة] وأخذك الخوف . . لَمَا نفعك هذا الخوف . ولو أصابك مرض تخاف منه . . لَما أنقذك الخوف منه ـ إلاّ أمر الآخرة ؛ فانّ الخوف يصلحه .

ترىٰ . . ما خبر ذلكم الطرف الآخر الذي نريد لنمضي اليـه ؟ ! وكيف هي الحياة فيه ؟ !

هـذه الأيـام . . أيــام [صـالحـة] لهـذا الشــأن : إذا كـان لـديـك الخوف . . فإنك تجد وسيلة [نجاة] .

. . فيا أيّها الذين ما اتّخذوا سبيلاً إلىٰ الله . . قـد وجدت لكم هـاهنا سبيلاً !

تلكم الوسيلة ، وذلكم السبيل . . هو « صاحب الوسائل » . **وصاحب الوسائل هو الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)** . . الذي لديه وسائل جمّة كثيرة .

إنّ للمتحيّرين في ذلكم العالم . . صاحب « مَضيف » ! أعني : الحسين بن عليّ بن أبي طالب . . الذي له تسعة « دور ضيافة » !

كان له ـ في هذا العالم ـ عدّة مضائف . والآن له أيضاً ـ في عالم البرزخ ـ العديد من دور الضيافة . وله في أرض المحشر كذلك . . العديد من المضائف .

ولكلّ مضيف من المضائف منادٍ ، وله موائد . . وأشربة !

ولهذا الموضوع تفصيلات تتّصل بمواضع هذه المضائف التسعة .

الوسائل كثيرة وفيرة . . عدّتها مئة أو مئتين . وليس منها ـ ليكن معلومات لديك ـ « مخالفة أمر الله » و« السقوط » فيها !

ما سمعنا قطّ أنّ الإمام قد عدّ معصية الله ، ونقض الشريعة ، أو نسخ الشريعة والقرآن . . من وسائل الحسين . بل أنّ للإمام [عليه السلام]نفسه كلاماً قاله في الميدان يستبين منه أنّ [مرتكب] مثل هذه الأمور خصيم الله وللرسول وللإمام نفسه . وهذا الكلام هو قوله : -

« أيّها الناس ! هل تطلبوني بقتيل منكم قَتَلْتُه ؟ ! أو مالٍ لكم استحللتُه ؟ ! أو شريعة بدّلتها ؟ ! أو سُنّة غيّرتها ؟ ! أو حرام حللّته ؟ ! أو حلال حرّمته ؟ ! فَبِمَ تستحلّون دمي ؟ ! » .

وسيكون هذا الكلام ـ يوم القيامة ـ حجّة علىٰ من يقولون : لا ضرر في الكذب بالتعزية ! . . فهذا كأنه نقض لكلّ الشرائع .

أترىٰ الموسيقىٰ والغناء والكذب علىٰ الله ورسوله . . ممّا يقيم تعزية ؟ !

من ارتكب هذه الأمور مستحلاً لها . . فدمه حلال . اتراك تريد أن

تتوسّل بهذه الأمور ؟ ! هذا غير ممكن !

أجل ، إنّ وسائل سيّد الشهداء (عليه السلام) كثيرة . . وما منها « معصية الله » .

إنّ أمر الدين لا يصلح بأهواء النفس !

لو كان الأمر كذلك . . فما الضرر إذن من وقوع مثل هذه الأمور ؟ ! [لو كان الأمر كذلك] . . لَمّا كان هذا المولىٰ قد تحمّل هذه المصائب : لقد هوىٰ [عليه السلام] في الميدان . . واقتيدت أخته علىٰ جَمَل . .

لم يكن كلّ هذا من أجل غير الدين . ولو كان الأمر ـ كما يقول بعضهم ـ لَمّا كان ثمة من يستدعي تحمّل هذه المشاقّ !

هدفي اليوم . . بيان مرتبة سيّد الشهداء ، لا قراءة المراثي .

لكلّ وسيلة من وسائل سيّد الشهداء التي أذكرها وأعدّدها . . منادٍ جليّ :

أحدها : النداء من قِبَل ربّ العالمين . والمنادي في بعضها : النبيّ وفي بعضها : جبرئيل الأمين . والمنادي في بعض منها : أمير المؤمنين وفي بعض آخر : سيّد الشهداء نفسه . والمنادي في بعض منها : العَلِيّة المكرّمة السيدة زينب . . أجل ، لكلّ وسيلة مناد .

لكلّ منها نداء ـ أعني الوسائل الحسينيّة . واليوم أعدّد مقداراً من هذه الوسائل . . من أجلْ أن نعقد « عقد التوسّل » .

للتوسّل عقد أيضاً ، وله صيغة « ايجاب وقبول » . وللعقد « صَكّ » أو « سَنَد » . ما تقولون . . أنعقد عقود [التوسّل] هذه ؟ !

علينا صيغة الايجاب . نتوجّه اليوم بالايجاب صادقين ـ وهو [صلوات الله عليه] ينظر الينا الآن من أحد مضايفه ـ فنقول :

يا أبا عبد الله ! إنّي أتوسّل بك إلىٰ الله

. . فيكون منه [صلوات الله عليه] القبول .

التوسّل به [عليه السلام] علىٰ أنحاء ، فـ« البكاء » ـ مثلاً ـ وسيلة من الوسائل الحسينيّة . والبكاء نفسه علىٰ أنواع .

إذا ما أردنا أن نكتب صكّاً أو سنداً فانّه يكتب في دفتر الأعمال . . تماماً كَسَند المعاملات ، إذ يكتبون : اشترىٰ (فلان) من (فلان) الدار (الفلانيّة) ، بمبلغ (كذا) وبشرط (كذا) .

ونحن الآن نقول : الحسين (عليه السلام) هو المشتري ، فانّه يكتب : **هذا ما اشترىٰ الإمام السعيد أبو عبد الله الشهيد .**

المشتري . . هو الإمام .

ولكن : ممّن يشتري ؟ يشتري من هذا البائع الغارق في بحر الذنوب ، [من هذا] العبد الأسود الوجه ، المحترق بغضب الله !

وما يشتري ؟

في هذه الوسيلة يشتري منك عشرة أنواع من الحزن والبكاء :

أحدها أنّه يشتري منك أن تكون « مهموماً » . . من دون بكاء .

ويشتري مرتبة أخرىٰ أرفع من الأولىٰ ، هي « وجع القلب » ، أي أن يتوجّع قلبك من أجل الإمام .

ويمضي أبعد من هذا . . فيشتري كذلك : الدمع الذي تغرورق به عينك ، ولا يخرج منها .

وهذه كلّها من مضامين الأحاديث . . وليست مسائل مفتعلة .

ويشتري أيضاً أيّ قدر من الدمع يخرج من عينيك . . حتىٰ لو لم يجر، يشتريه كذلك . . حين يجري علىٰ الخدّ .

وإذا جرىٰ علىٰ الخدّ ووقع علىٰ المحاسن . . فإنّه يشتريه أيضاً .

وإذا جاوز المحاسن ، وجرىٰ علىٰ الصدر . . فهو كذلك يشتريه .

ويشتري أيضاً ما زاد . . كأن يبلغ ذيل الثوب .

ولكلٍّ من هذه نصّ [دالّ عليها] . . ولكل أجر ، إذا صحب الدمع أنين فانّ له أجراً .

ويرتفع الصوت بالتأوّه والأنين . . فيكون له أجر [آخر] .

ويكون أجره [أرفع] إذا رافقه صراخ .

أمّا المرتبة العاشرة . . فهي ما ورد في حديث « أبي ذرّ » :

« حتىٰ تَزْهَقَ أنفسُكم » .

* * *

انظروا ـ يا إخوتي : ماذا صنعنا نحن من أجل سيّد الشهداء ؟ !

تُنْقَل كلمة عن يزيد الرجس . . أشعر معها ـ كلّما تأمّلت فيها ـ بالحياء من مجالس العزاء هذه [التي نقيمها] . . يُقال ـ فيما اتذكّر ـ انه عندما أمر أن يعلّق رأس الإمام علىٰ باب الدار . . علمت زوجته بما صنع ، فدخلت مجلسه العام ، حاسرة الرأس ، وقالت عبّارة . . مضمونها :

يا يزيد . . أعلّقتَ رأس الحسين بن فاطمة علىٰ باب الدار ؟ !

عندها نهض يزيد ، وألقىٰ علىٰ « هند » رداء نحسه ، قائلاً : ارجعي يا هند وقرّي في بيتك . عجّلَ عليه ابن زياد (لعنه الله) . . فاذهبي وأعْولِي عليه !

يزيد يقول [لزوجته] : اذهبي . . ونوحي علىٰ الحسين . . أمّا نحن . . أَفَترانا ننوح عليه هذه النياحة ؟ !

* * *

الآن . . اكتمل سند العقد : هذا ما آشْترىٰ . . .

إنّه المشتري ، وهو الذي يدفع ثمن دموع العين .

ولا تـظننّ أنّ هذه الـدموع التي ذُرِفت . . سـوف تجفّ . كلاّ . . مـا هكذا ! لقد خلق الله مـلائكة يجمعـون الدمـوع الجاريـة علىٰ ما أصـاب سيّد الشهداء ، ويجعلونها في قوارير الجنّـة . . « فيدفعـونها إلىٰ خـزنة الجِنـان ، فيمزجونها بماء الحَيَوان »[1] .

ترىٰ : متىٰ يُدفع الثمن ؟

ثمن هـذه « البضاعـة » يُدفـع نقداً . . كمـا قال [الإمـام] : « ألاَ . . وصلّىٰ الله علىٰ الباكين على الحسين رأفة وشفقة » . [الثمن] : أنّ الله يصلّي عليك !

هذا [ما يُدفع منه] نقداً . أمّـا الباقي . . فيـأتيك علىٰ عـدّة أقساط : قسط منه وقت احتضارك، وقسط عند دخولك القبر وواحد وقت سُكناك القبر . وآخر عند خروجك من القبر . . وهكذا حتىٰ القسط الأخير .

ومع هذا . . فانّي ما عددت شيئاً من هذه الوسائل .

ثمّة ـ كما ذكرت ـ مئة وسيلة . . أو مئتان . أرفعُها : « الاستشهاد » في ركابه [صلوات الله عليه] .

ذلـك أنـه مـا من نبيّ ولا امـام قـد استشهـد في الميـــدان . فنبيُّ الله يحيىٰ (عليه السلام) قطعوا رأسـه ووضعوه في طست . امـير المؤمنين (عليـه السلام) استشهد في المحراب . الإمام الحسن استشهد بالسمّ في البيت .

الاستشهـاد في الميدان . . من خصـائص الحسين [عليـه السـلام] . وهـذه الوسيلة مـوقـوفـة علىٰ اثنين وسبعين شخصـاً . . كـانت أسمـاؤهم في « الصّحيفة الحسينيّة » التي نزل بها جبرئيل .

ذلك أنّ جبرئيل قد أنزل اثنتَي عشرة صحيفة ـ بعدد الأئمة الاثني عشر ـ فيها تكليف كلّ إمام . وكلّ إمام يبلغ مقام الإمامة فانه يفتحها ويقرأ ، ويعمـل

---

(١) مـاء الحَيَوان : مـاء الحياة ، كمـا قال (تعـالى) : « وانّ الدار الآخـرة لهي الحَيَوان » ـ أي : الحياة الحقيقيّة .

بتكليفه . .

وكانت للحسين (عليه السلام) صحيفة ، جاء فيها :

« يـا حُسَيْن . . اشْرِ نفسَـك لله ، وقاتِـلْ حتّىٰ تُقْتَل ، وآخْـرُجْ بـأقـوام للشهادة . لا شهادةَ لهم إلاّ مَعَك » .

* * *

هذه كانت وسيلة واحدة ، وثمة وسيلة يماثل ثوابها ثواب الشهداء . فإذا نلتَ هذا المقام . . فانّك تعطىٰ مثل مقام الشهداء .

هذه الوسيلة الاخرىٰ . . هي « المشاركة » .

في الخبر أنّ جابر [بن عبد الله الأنصاري] كان قد جاء كربلاء ـ أوّل زائر للإمام [عليه السلام] . وجابر رجل لا يخدشه [أنّه ما حضر واقعة الطفّ] ، إذ هو معذور . . لأنّه كان مكفوف البصر ، قد سقط عنه الجهاد .

وسيّـد الساجـدين لو لم يكن عليـلاً [في وقتهـا]لكـان تكليفـه الجهـاد كذلك . كان لا بدّ أن يمرض . . ليبقىٰ . ورغم العلّة الشديدة [التي قعدت به] . . [حمل نفسه] ومضىٰ ـ مرّة أو مرّتين ـ لنصرة أبيه العظيم .

الخلاصة . . انّ جابراً قدم لزيارة سيّد الشهداء (عليه السلام) في يوم الأربعين. وأفهم من الروايات أن هذا الرجل المكفوف البصر قد جاء من المدينة المنوّرة إلى كربلاء ، مشياً على الأقدام . وكان دليله عطيّة [العوفيّ] . .

أجل ، كان موضع الحرم المقدس آنذاك في صحراء ، ولا مَعْلَم للقبر إلاّ ما ربّما كان من تراب هو بمثابة تعلية له . قال لجابر لعطيّة : خـذني إلىٰ القبر وألْمِسْنيه ! يقول عطيّة : ففعلت .

عندها نادىٰ جابر ـ ثلاث مرات : « يا حسين ! » . . وخرّ مغشيّاً عليه . فلمّا أفاق . . زار الإمام . وأدار وجهه إلىٰ ناحية الشهداء ، وزارهم ثمّ قال :

« أشهدُ لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه » .

قال عطيّة : فقلت له : كيف . . والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم [وأُيتم] أولادهم ، وأُرملت الأزواج ؟ !

فقال لي : يا عطيّة . . سمعت حبيبي رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) يقول : « **مَنْ أحبّ قوماً حُشِرَ معهم . ومن أحبّ عمل قوم أُشْرِكَ في عملهم** » . . وإنّ نيّتي [ونيّة أصحابي] علىٰ ما مضىٰ عليه الحسين وأصحابه .

* * *

الوسيلة الأخرىٰ . . هي « **معرفة حقّ الحسين ـ عليه السلام** » .

المنادي بهذه الوسيلة هو النبيّ [صلّىٰ الله عليه وآله] ؛ إذ كان يأخذه علىٰ المنبر ، ويجلسه في حضنه . . ويقول : « **أيّها الناس ! هذا الحسين بن عليّ فآعرفوه** » .

ومع أنّ حقّ الأئمة [كافة] ينبغي أن يُعْرَف . . إلّا أنّ هذا يدلّ علىٰ أنّ للحسين خصوصيّة . يقول [عبد الله]بن أبي يَعْفور : ذهبت من الكوفة إلى المدينة للقاء الإمام الصادق (سلام الله عليه) . وهناك قلت له : [دعاني الشوق اليك] أنّ تجشّمتُ اليك علىٰ مشقّة . فقال [عليه السلام] : « لا تَشْكُ ربَّك » ـ أي : إذا كنتَ عملت هذا لله . . فلا تذكر ما عانيتَ فيه .

ثمّ قال [عليه السلام] : « فهلّا أتيتَ من كان أعظم حقّاً عليك منّي ؟ » . يقول [ابن يعفور] : عجبت من هذا ، وقلت : ومن أعظم عليّ حقّاً منك . . وأنت امام مفترض الطاعة ؟ !

قال : « **الحسين بن عليّ** » .

* * *

من الوسائل : « **مبايعة سيّد الشهداء** » . وقد تمّت مبايعته الآن .

ثمّة منادٍ بالبيعة . . في اليوم الذي خرج فيه [الإمام] من مكّة : كُشِف لابن عبّاس في الرؤيا ، قال : رأيت يد سيد الشهداء بيد جبرئيل في المسجد

الحرام . . وجبرئيل ينادي :

« هلمّوا إلىٰ بيعة الله » !

والآن . . أتراكم تبايعون سيّد الشهداء هذه البيعة الجبرئيليّة التي هي بيعة الله ؟ ! يمكنكم الآن أن تبايعوا . . ويمكنكم أن تَفُوا .

* * *

من الوسائل الحسينيّة : « حجّ الحسين » .

وهذا له تفصيل . انّ الكعبة لها مناسك . . لها حجّ . أمّا حجّه [صلوات الله عليه] وحجّ أنصاره . . فإني لا اتحدّث عنه الآن .

* * *

ومن هذه الوسائل : « التلبية » لسيّد الشهداء .

ما في زيارة أحد « لبيك » ـ إلاّ في زيارة سيّد الشهداء التي فيها « لَبَّيْكَ داعيَ الله » .

يمكنك أن تلبّي . وسأذكر بعض آداب التلبية ـ إنّ شاء الله (تعالى) .

* * *

لستُ قادراً علىٰ ذكر كلّ الوسائل ، وانما اذكر خواصّ بعضٍ منها :

إنّ الإنسان قد يعمل عملاً مُعيّناً ، فيصدر منه العمل . . ولكنه يصيبه « الحَبْط » ، أو يأخذه منه يوم القيامة الخُصَماء . . فإن للعمل مسارب كثيرة للبطلان والفساد .

من الوسائل : أن يترتّب الأثر علىٰ العمل . . بلا اختيار من الإنسان صاحب العمل . . فلا يصيبه عندئذ الحَبْط ، ولا يقوىٰ الخصماء علىٰ أخذه . فكما أن الدائن ـ مثلاً ـ لا يستطيع أن يأخذ دار سُكنىٰ [المَدين] بَدَل دَيْنه . . فكذلك الخصماء في القيامة ، يأخذون الأعمال ولكنهم لا يأخذون مثلاً ايمان هذا الإنسان .

أجلْ . . إنّ من وسائل سيد الشهـداء (عليه السـلام) ما هـو غير قـابل للحبط .

قال المعصوم [عليه السلام] : لكلّ شيء حدّ في الأجر والثواب . . **إلاّ البكاء علىٰ سيّد الشهداء ، فلا حدّ لثوابه .**

لنفترض الآن أن أصحاب الحقوق يأتون ـ يوم القيامة ـ ليأخذوا عملك . ولكنّه رغم هذا يبقى لك منه ؛ إذ لا حدّ له حتىٰ ينفد .

إنّ مجرّد الخلاص من الخلود في جهنم ـ في الأقلّ ـ هو شيء حسن !

من مراتب البكاء علىٰ سيّد الشهداء ـ مثلاً : أن تفكّر برويّة في مقاماته ، وتبكي لمصائبه . . اختياراً . فهذا داخل في جملة الأعمال .

إنّ هذا البكاء إنما حَدَث بعد ملاحظة مقاماته (عليه السلام) ، من غير احتياج إلى ملاحظة مصائبه المفجِّعة . يكفينا أن نذكر مصيبة واحدة .

نذكر مصيبة جعلته جليس بيته في المدينة ، أو مصيبة تشريـده عنها . . فمضىٰ إلى مكة التي هي حَرَم الله .

ليست [مكة] حَرَماً للمسلمين وحدهم ، إنما هي حَرَم للكـافر أيضـاً ، وحَرم للقاتل .

حـرم هي لـلانسـان الكـافـر ، والقـاتــل ، وللحيـوان ، وللوحــوش ، وللطير . . جميعاً ولهذا عليك ألاّ تأكل من لحم الصيد [في مكة] فانه حرام . أجل ، يحرم [في مكة] صيد الحيوان كافّة .

انها حرم للنبات .

وحتّىٰ لجذور الشجر . . هي حرم [آمن] . حتىٰ اخراج جذور الشجر خارجاً . . عمل محرَّم .

مكّـة هـذه [الحـرم الآمن لكـلّ شيء] . . مـا كـانت حــرمـاً لسيّــد الشهداء (عليه السلام) ؛ فلقد شرّدوه عنها أيضاً .

وعلىٰ هذا . . فانّ بكاءنا إذا كان اختياراً ، فـانّ هذا القـدر [من تذكّـر المصيبـة] كافٍ عليـه : الناس كـانوا قـد عقدوا احـرام الحجّ ، ولكنّـه (عليه السلام) بدّل حجّه بعمرة . . ولم يُتمّ حجّه .

لسيّد الشهداء [عليـه السلام]مصـائب [أخرىٰ] لا تحتـاج إلى التفكير والتأمّل ، لا التفكير بامامته ، ولا بجلالته ، ولا بعَظَمته .

افترض أنه شخص لا تعرفه . . فإذا سمعت ببعض ما جـرىٰ علىٰ سيد الشهداء (سلام الله عليه) فانك تنخرط في البكاء دونما حاجة منـك إلىٰ قصد القربة ، ولا حاجة إلىٰ التأمّل والتفكير . ما أن تعرف ان ما أصابه ممّـا يخالف الدين . . حتىٰ تبكي بلا اختيار .

وهذه الخصوصيات . . مما لم يفطن له الكثيرون !

بعض خصوصيات عاشوراء حُكيت ليزيد . ويزيد ليس كمثله في السوء ، إذ تفسَّر به الآية : ﴿ طُغياناً وإثماً عظيما ﴾ ـ بناء على أحد التفاسير . مـا ترك يزيد طغيـاناً ومعصيـة [إلاّ ارتكبها] . من قتـل الحسين المظلوم (سـلام الله عليـه) . . إلى تخريب مكـة المكـرّمـة . . إلىٰ شـربـه الخمـر في المـدينـة المشرّفة .

لا أدري أيّ وقـائع يـوم عاشـوراء حُكي لهذا الملعـون صاحب مقـام : « طُغّياناً واثماً كبيراً » . . حتى قال: أمَا لو كنتُ صاحبَه لدفعتُ عنه ـ ولو بهلاك بعض ولدي !

ليت شعري . . ماذا حُكي له من المصائب حتىٰ قال قولته هذه ؟ !

هناك عدّة احتمالات حول ما حُكي له . . أحدها هذا :

إنّ سيّـد الشهداء عنـدما هـوىٰ إلىٰ الأرض ، بكلّ جـراحـاتـه تلك . . [عَمَدوا] إلىٰ صبيّ [من معسكر الحسين] عمره احدىٰ عشرة سنة . . فقتلوه وهو علىٰ صدره [عليه السلام] . لا تجيء مصيبـة أمضى من تلك المصيبة .

ندع ذكرها الآن . . لنفصّلها في وقت آخر ـ إنْ شاء الله .

أجل . . البكاء الذي كان هنا علىٰ سيّد الشهداء . . كان بكاء تَرَحّم !

[إنّا لله وإنّا إليه راجعون] .

سادس الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سبحانك اللهمّ وبحمدك . لا أُحصي ثناءً عليك . . أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك . يا واحد يا أحد ، يا فرد يا صمد . يا مُسْتَغنياً عن العَدَد والعُدَد ، مُنَزَّهاً عن الصاحبة والولد .

لك ـ يا إلٰهي ـ وحدانيّةُ العَدَد ، ومَلَكةُ القدرة الصَّمَد . لك العُلُوّ الأعلىٰ فوق كلّ عال ، والجلال الأمجد فوق كلّ جلال .

نَحْمدُك علىٰ نعمائك ؛ والحمد من نعمائك .

ونشكرك علىٰ آلائك ؛ والشكر من آلائك .

ونُصَلّي ونسلّم علىٰ أفضل أُمَنائك ، وأكرم أنبيائك : الصَّفِيّ المقرَّب ، والحبيب المهذَّب . وعلىٰ أهل بيته الميامين ، والسادة المطهَّرين . . المقيمين لأعلام الاهتداء . ومنار الضياء ، والقائمين علىٰ المحَجّة البيضاء ، والحافظين للشريعة الغَرّاء . . عليهم آلاف التحيّة والثناء ، ما دامت الأرض والسماء .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

﴿ إنّ الله آشترىٰ مِنَ المؤمنينَ أنْفُسَهم وأموالَهم . . بأنَّ لَهُمُ الجَنَّة ،

يُقاتِلونَ في سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقْتَلون ، وَعْداً عليه حقّاً في ٱلتّوراة وٱلإنجيلِ وٱلقرآن ﴾ .

في هذه الآية الشريفة . . معاملة بين الله والعبيد .

ربّ العالمين هو « المشتري » .

المؤمن هو « البائع » .

« البضاعة » . . هي النّفس والمال .

و« الثّمَن » . . الجنّة .

« سَنَد » العقد . . التوراة والانجيل والقرآن .

﴿ فاستبشِروا ببيعكمُ الذي بايَعْتُمْ به ﴾ .

والناس في هذه المعاملة . . مختلفون :

بعضهم ـ من أوّل خِلْقته وحتىٰ النهاية ـ ليست له مع الله هذه المعاملة . فهو لا ينظر إلىٰ غير الدنيا . وما يقوم به من عبادات ومعاملات . . إنما يقوم به من أجل الدنيا . إنّه ما دخل مرّةً فقط داخل دكّان معاملة « إنّ الله اشترىٰ . . . » .

وبعضهم . . دَخَل قليلاً ، [ومع ذلك فإنّ] الله [تبارك وتعالىٰ] يقول : أنا أشتري أيّ شيء : النّفس ، المال ، تحمّل الصعاب !

[والآن] انْظُرْ . . أكنتَ عاملتَ الله ؟ ! لاحظ أعمالك . . وانظر : ألك معاملة مع الله . . أم لا ؟ !

وسائر المؤمنين متفاوتون :

فيهم مَن له المرتبة العُلْيا في هذه المعاملة . . وهؤلاء هم الشهداء . انهم مجموع الشهداء . . من الأوّلين والآخِرين . ذلك أنّهم قد باعوا الله ـ حقيقةً ـ أعزّ ما لديهم .

سَنَد العقد قد كُتب . ما أن يمضي الشهيد إلى الحرب من أجل الله . .

حتّىٰ يتحقّق أنّه قد باع نفسه ، فاشتراها الله . ولسوف يقبض الثمن . . « بأنّ لهم الجنّة » . أي تكون الجنّة مُلْكاً له مختصّاً به . ومن هذا ما ورد في الأخبار من أنّ الشهيد أوّل ما يسقط تتلقاه الحُور العِين .

هذا مقام الشهداء .

وأعلىٰ الشهداء ـ من الأوّلين والآخرين ـ هم « شهداء كربلاء » . . فهم سادات الشهداء ، ورئيسهم هو « سيّد الشهداء » . . حتّىٰ ذلكم العبد الأسود ! بحكم « أولئك سادة شهداء أمّتي إلىٰ يوم القيامة » . سيّدهم سيّد الشهداء ، وهم سادة سائر الشهداء .

ولهذه المزيّة وجه ، ذلك بأنّهم فاقوا كافّة المجاهدين . . حتّىٰ أصحاب الأنبياء . خُذْها من أصحاب نوح . . إلىٰ أصحاب [الإمام] صاحب الأمر (عجّل الله فَرَجه) . شهداء كربلاء هم الأرفع . . فلقد فاقوا أصحاب نوح وأصحاب طالوتَ وأصحاب موسىٰ وأصحاب عيسىٰ . ولهم التفوّق كذلك علىٰ شهداء بدر وحُنَيْن والأحزاب . . وعلىٰ كلّ [الشهداء] الذين كانوا مع النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) ومع أمير المؤمنين (سلام الله عليه) . . وعلىٰ أصحاب كلّ إمام من الأئمة ، إلىٰ أصحاب القائم الذين يقتلون في ركابه . ولهذا دليل وبرهان . . من القرآن ، والأحاديث ، والعقل .

أعلمْ أنّه ما كان [ثمّة] شهداء أعلىٰ من شهداء بدر .

يكفي في فضيلة [شهداء] بدر . . أنّك تقرأ في زيارة [أبي الفضل العبّاس (سلام الله عليه)] :

« أشهدُ أنك مضيتَ علىٰ ما مضىٰ عليه البدريّون » .

ألا تلاحظ . . مدىٰ ما لهم من الفضيلة ؟ ! ولو تأمّلتَ في حالة هاتين الطائفتين من الشهداء لوقفتَ علىٰ ما بينهما من فارق . عِدّة أهل بدر كانت ثلاثمئة وثلاثة عشر . ليس معهم جميعاً غير فَرَسَيْن . لم تكن معهم سيوف . عماد سلاحهم كان جريد النّخل . وفي مقابلهم ألف فارس من رجال الميدان . ألف فارس جاءوا قبال النبيّ [صلّىٰ الله عليه وآله] . ليس في الموضوع هزل .

[أهل بدر] ما خرجوا بادىء الأمـر بقصد القتـال . لو كـانوا أيقنـوا أن الحرب ستقع لما خرجوا . . كما قال ربّ العالمين في القرآن مشيراً اليهم :

﴿ وإذ يَعِـدُكمُ آللهُ إحدىٰ الـطائفتينِ أنّهـا لكمْ ، وتـوَدُّونَ أنّ غيْـرَ ذاتِ الشَّوْكةِ تكون لكم ﴾ .

قال لهم أوّلاً : تعالَوا تغنموا قافلة الكفّار .

خرجوا على أمل أن يفوزوا بالقافلة . . لا علىٰ أمل أن يُقْتَلوا .

ولكنْ . . لاحظْ « شهداء كربلاء » : علىٰ أيّ أمل خرجوا ؟!

كان خوف « أصحاب بدر » من القتـل : « وتَوَدُّونَ أنّ غيـرَ ذاتِ الشَّوْكـة تكون لكم » ! أمّا « شهداء كربلاء » . . فكان كلّ طموحهم ـ يوم عاشوراء ـ أن يُقْتَلوا . كلّ منهم كان يتعجّل الذهاب ليستبق إلىٰ القتل .

« شهداء بدر » بما وعدهم ربّ العالمين من النّصر . . استغاثوا في وقت الحـرب ، كما قـال [تعالىٰ] : « إذ تَسْتغيثـونَ ربّكم ، فـآستجـابَ لكم أنّي مُمِـدُّكم بألف من المـلائكـة مُرْدِفين » لا تضـطربـوا . . أبعث لكـم مـلائكـة تنصركم .

أما « شهداء كربلاء » . . فقد جاءت الملائكة لامدادهم ، لكنهم خشوا أن يمارس الملائكة الامداد . . فتَفُوت عليهم فرصة القتل !

لاحظ هذا التفاوت . . من أين . . وإلى أين؟ !

لقد علا مقام الكربـلائيّين علىٰ البدريّين ، واستبـانت نسبة مقـامهم إلىٰ سائر الشهداء . . ومنهم البدريّون الذين كانوا أعلىٰ مقاماً من الآخرين . لشهداء كربلاء صفة . . يذكرها الإمام [الصادق عليه السّلام] حينما يأتي لزيارة سيّد الشهداء ، ثمّ يمضي إلىٰ قبر الشهداء فيخاطبهم بقوله : « السلام عليكم . . يا أولياء الله » !

أرأيت إلى هـذا المقام الـذي ذكره الإمـام جعفر الصـادق (صلوات الله

عليه) : « يا أولياء الله » ؟ !

* * *

من جملة صفاتهم ـ وهم سادة الشهداء ـ أنّ كلاًّ منهم « مأموم » حقيقيّ لسيّد الشهداء . كان الإمام والمأموم ـ في الحقيقة ـ علىٰ نَسَق واحد . الإمام : سيّد الشهداء ، والمؤمومون : الشهداء .

لقد آئتمّوا به في كلّ شيء . ائتمّوا به في العطش . . في قطع الرأس . . في حمل الرأس علىٰ القناة . في كلّ شيء كان « إماماً » . . وكانوا « مأمومين » . صار إماماً في كلّ الأفعال .

لم يَحْدُث ـ إطلاقاً ـ بين إمام ومأمومين . . مثل هذا الائتمام . كلّ شيء لهم كان يَحْدُث جماعةً ومتابعة :

ظُلامتهم ، صلاتهم ، محاصرتهم ، عطشهم ، صومهم ، فصل رؤوسهم عن الأبدان ، رفع رؤوسهم علىٰ الرماح ، بقاؤهم بلا غسل ولا كفن . . لقد اقتدوا به في كلّ شيء !

أتريد أن تعرف كيف حَدَث قطع الرؤوس جماعةً واقتداءً ؟ ! لم يكد أحد منهم يهوي إلىٰ الأرض حتّىٰ ينادي : « يا أبا عبد الله . . أدركني » ! يعني : لا تَدَعْهم يا مولاي يقطعوا رأسي !

لقد أرادوا ألّا يكونوا غير مؤتمّين به في فصل الرؤوس . أرادوا أن تُفْصَل رؤوسهم بعد رأسه الطاهر . . فالمؤكّد أنّ الرأس [الوحيد] الذي فُصِل في الميدان كان رأسه الطاهر . أمّا سائر الرؤوس . . فقد قُطِعت في اليوم الحادي عشر . . كما يقول السيّد السجّاد [عليه السلام] .

* * *

من ضمن صفاتهم . . أنّهم حَجّوا « سيّد الشهداء » ، فهو لهم كعبة الله الحقيقيّة .

أرأيت أيّ « إحرام » عقدوا له ؟ ! كيف نطقوا بالتلبية ؟ ! وأيّ طواف

وهرولة ووقوف . . قد أدّوا ؟ ! وكيف باتوا في « مناه » ؟ !

إنّهم ـ إذَن ـ الحَجيج الحقيقيّون لسيّد الشهداء .

* * *

أمّا الآن . . إذا لم يَبْقَ متّسع من الوقت للموعظة . . فانّ موعظتنا هي أيضاً هذه المصائب . والمصائب هي موعظة كذلك .

وللشهداء أيضاً حقّ علينا ، لعلّنا نؤدّي اليوم قدراً منه .

بعد أن استبان أنّ مقامهم أرفع من مقام كلّ الشهداء . . دَعُونا الآن نتبيّن كيف كانوا هم في أنْفُسهم .

فيما مضىٰ . . كنتُ أنظر ، لأرىٰ أيّهم الأفضل . والمراد بـ « الأفضليّة » هنا : الأفضلية في الشهادة ووقائع يوم عاشوراء . . وإلاّ فانّ الذين كانوا منهم من أصحاب أمير المؤمنين مثل حبيب [بن مظاهر الأسديّ] ومسلم [بن عَوْسَجة] وبُرَيْر [بن خُضَيْر] . . هم الأفضل .

أجَلْ . . أستطلع الآن حالهم وحال مصائب سيّد الشهداء ، فأجد لكلّ منهم ـ في عالَمه ـ خصوصيّة يغدو من خلالها هو الأرفع . ومَن بدا لك منهم أنّه هو الأفضل . . فلعلّه كذلك [في واقع الأمر] .

إثنان من بين [هؤلاء] الشهداء جميعاً . . ربّما أمكن القول انّهما ليسا كسائر الشهداء ؛ فانّ لهما من الخصوصيّات ما ربّما يتفوّقان بها علىٰ سواهم . . أو لا يكونان بها أدنىٰ من سواهم [في الدرجة] .

أستحضرُ . . بعض أصحاب الأسرار ، من أهل العبادة والمجاهَدة الذين كانوا من صحابة النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) . حبيب ـ مثلاً ـ كان من أصحاب النبيّ . . رجلاً شيخاً، صاحب أسرار، في درجة ميثم التمّار . . وكذلك بُرَيْر . وهذه درجة علىٰ حيالها . وبملاحظة هذه الزاوية من الأفضليّة [أي الأفضليّة في الشهادة] يمكن القول إنّ حبيباً لا بدّ أن يكون أعلىٰ من الحرّ ، فليس للحرّ أن يبلغ مقام حبيب . . بسبب الخطيئة التي صدرت منه . غاية ما في الأمر أنّ

الحرّ قد نجا بنفسه .

ولكنّي أستحضر أيضاً . . أنّ استحياء العبد أمام الله يجعله في قُرْب من الله قريب . إنّ أنين المذنب الذي يطلقه حياءً واعترافاً بالتقصير . . له مَزيّة في التقـريب كثيـراً [من الله] . ولـو أنّ الحـرّ لم يكن مـن أصحـاب تـلكم المقامات . . لكنّ ما [وقع منه] من خَجَل وآضطراب كان [شيئاً] كافياً .

وعلاوة علىٰ هذا . . فانّه أقبل وقد تخلّىٰ عن كلّ شيء لمّا اشتـدّ الأمر بسيّد الشهداء (صلوات الله عليه) . أصحاب [الإمام] عندما كانوا . . ما كان الأمر قد بلغ [بهم] شدّته . لكنّ « الحرّ » ـ وقد كان رجلاً قائد فرقة من الجيش تعدادها أربعة آلاف فارس ، وزعيماً ورئيساً لقبيلة ـ في إبّـان تلك الشدة . . تـرك ذلك الجـانب عن طِيب خاطـر ، وتخلّىٰ عن كلّ شيء : الأهـل والعيال والرفاه . . وأقبل إلى هذا الجانب ! أليس هذا عملاً كبيراً ؟ !

لا يَعْنينا هنا . . أتكون له فضيلة أمّ لا تكـون . إنّ استحياءه هـذا نفسه [فضيلة] . ما كان يظنّ أن توبته عمّا اجترح من سوء أدب [مـع الإمام] قـد قُبِلَتْ [أقبلَ وقد] طأطأ رأسه . ما رآه الإمام أوّل الأمر . . بَيْد أنّه رمىٰ بنفسه علىٰ أقدام الإمام .

قال الإمام : إرفعْ رأسك . . يا شيخ ! مَنْ أنت ؟ !

قال ـ وهو ما يزال عند قَدَمي الإمـام : أنا الشقيّ الـذي جَعْجَعْتُ بك ، وأخذت عليك الطريق !

ثمّ . . سأل [الحرّ] الإمام : فهل لي من توبة ؟ ! كان في شكّ ؛ فقد كان الذي كان ، ولم تُقْبل له توبة . . ولذلك سأله .

[أجَلْ] يا أخي . . إنّ لهذا الاستحياء ، ولهذا الاعتراف بالتقصير قرباً شديداً من الله . وقد جاء في الحديث القدسيّ خـطاباً [من الله] للمـلائكة : « أنين المذنبين أحبّ إليّ من تسبيحكم » .

وإذَنْ . . فما لأنين الحرّ من المقام ؟ !

كـذا الشأن في الاستحيـاء . . فانّ العبـد ؛ إذ لا يرىٰ لنفسـه لياقـة ولا أهميّة ، ولا يَعُدّ نفسه شيئاً . . تكون له عند الله زيادة قرب .

العبد الأسود ـ علىٰ سبيل المثال ـ كان أحد شهداء كربلاء . ومن الواضح أنّه كان يستحـي من قلّة الشأن وفقدان اللياقة لأن يمتزج دمه « الأسْوَد » بدمـاء الأبرار ! قال : يـابن رسول الله . . أأكون من أهل الجنة ؟ !

لاحظّ هذا الاستحياء : أنا أسود ! دمي أسود !

إنّ لهذا [الاستحياء] عند الله قرباً كبيراً .

حضر الإمام [عليه السلام] مصرعه . . ودعـا له : « **اللهمّ . . بيِّضْ وجهه ، وطيِّب ريحه ، وآحشره مع محمّد وآل محمّد ـ صلّىٰ الله عليه وآله** » .

وبعد [مقتله] . . . أخذوه ليدفنوه . كان يسطع منه عبير المسك .

ولكن . . مـا الضرورة ـ والحـالة هـذه ـ للحديث عن الأفضـل منهم ، وعمّن هو غير الأفضل ؟ ! ما ثمّة ما يقضي هذا الحديث .

* * *

هلمّوا الآن نحكي عن مصيبة هؤلاء الشهداء .

ما أن بدا بياض صبح يوم عاشوراء . . حتّىٰ استعدّ الإمام [صلوات الله عليـه] وأصحابـه لصلاة الصبـح . ولكن . . هل تـوضّـأوا ؟ ! هـذا من غيـر المعلوم . لا بدّ أنّهم قد تيمّموا !

كان للإمام مؤذّن . . هو الحَجّاج بن مسروق . هو واحد من الشهداء ، وكان دائماً هو الذي يـرفع الأذان . قـال الإمام [عليـه السلام] : اليـوم يؤذّن « عليّ الأكبر » .

أذّنَ . . « عليّ الأكبر » . وصلّىٰ الإمام . فأئتمّ به الجميع .

بعد الصلاة . . التفت الإمام إلى أصحابه وأهل بيته ، قال :

أشهدُ بأنّا نُقْتل كلّنا ـ إلاّ عَليّ[1] .

كلّهم ـ وقد سمعوا كلمة الإمام هذه ـ أخذهم الفرح ، وبدا عليهم الأُنس والسرور . حتّىٰ أنّ واحداً منهم كان يمزح . . اليوم ـ أو قبله . فقال له أحدهم : أهذا وقت مزاح ؟ ! قال : والله ! ما عرفتُ المزاح عمري ، ولا أحبّه . . لكنّ اليوم يوم أُنس . لاحظْ . . إلىٰ أيّ مدى تبلغ هذه الدرجة !

علىٰ أيّ حال . . بعد شروق الشمس ، استعرض ابن سعد (عليه اللعنة)عسكره . كانت عِدّته ـ على قولٍ : مئة ألف . وعلىٰ قول آخر كانوا ثمانين ألف فارس ، وأربعين ألف راجل . ولم يرد في خبر أكثر من هذا [العَدَد] . لكنّ القَدْر اليقينيّ أنّهم كانوا ثلاثين ألفاً ـ كما جاء في حديث صحيح . هؤلاء جميعاً . . قد اصطفّوا : أمير الجيش [ابن سعد] نفسه . وولده وزيره . علىٰ الميمنة : عمرو بن الحَجّاج . وعلىٰ الميسرة : شمر بن ذي الجوشن . ومحمّد بن الأشعث علىٰ رأس الرُّماة . كلّهم جاءوا . . ووقفوا صفّاً في مقابل هذا « المظلوم » .

واستعرض سيّد الشهداء (سلام الله عليه) [جيشه] . رتّب الميمنة والميسرة . كان جيشه اثنين وأربعين من الرَّجّالة ، وثلاثين فارساً . . أو بالعكس ! جعل علىٰ الميمنة حبيب بن مظاهر ، وعلىٰ الميسرة زُهَيْر بن ٱلقَيْن . العَلَم كان . . بيد حبيب . والراية بيد أبي الفضل العبّاس (سلام الله عليه) .

نعم . . أقول : نظّم الصفّ ؛ فلا مقتضىٰ للاستعراض !

وقف الجيشان . . متقابلَيْن . قال ابن سعد لمن كانوا في قلب جيشه : اثبتوا في مواضعكم . ثمّ قال للجيش : أحيطوا بالميمنة والميسرة .

العسكر . . الذي يقدّر طول صفّه بفرسخ وعرضه بفرسخ . . أحاط بالإمام ، وبالمخيّم . . كما تحيط الحلقة .

---

(١) أي الإمام عليّ بن الحسين : السجّاد زين العابدين (عليه السلام) ، إذ كان في وقتها مريضاً قد أنهكته العلّة .

انظرْ . . ما فعل الكلبُ الطاعن الملعون [ابن سعد] ، طمعاً في مُلْك الريّ ! أوّل ما فعل أنّه نـادىٰ « دُرَيْداً » : أدْنِ رايتـك . تناول قـوساً وسهمـاً . وضع السّهم علىٰ وَتَر القوس ، وأشهدَ العسكر كافّة : اشهدوا لي [عند الأمير] أنّي أوّل من رمىٰ !

في اللحظة التي انطلق فيها السهم من قوسِ ملعون الأزَل والأبَد هذا . . رمىٰ رماة الجيش ـ ولا أدري كم كان عددهم ـ بالنِّبال دفعة واحدة !

حتىٰ الآن . . ما حكيتُ مصيبة هذه الوقعة . نعم . . اثنا عشر ألف نبل أقبلت في صفّ واحد ! ترىٰ . . ما الذي يحدث ؟ !

جاء في حديث صحيح أنّ نصف « جيش » سيّد الشهـداء (صلوات الله عليه) قد قتل في هذا الرمي .

الوقت الآن . . أوّل الصبح . سقط نصف جيش الإمام المظلوم . بَعْدها صِيرَ إلىٰ المبارزة والمُضِيّ إلىٰ المنازلة . . واحداً واحداً . وكانت لكلّ كيفيّة .

كان عليهم أن يخرجوا للمبارزة والمنازلة . لكـلّ منهم كانَ رَجَـز ارتجز به ، وكيفيّة في القتال ، واستئذان [للقتال] ، ومجلس . . ما هذا أوان بيانه .

بعضهم كانوا قائمين بين يَدَي سيّـد الشهداء . وبعضهم كـانوا يـطوفون حول « بيت » سيّد الشهداء . حتّىٰ أنّ بعض مَن كانوا قائمين بين يَدَيْه استقبلوا بوجوههم الميدان . . وأيديهم وظهورهم تلقاء الإمام ، لئلّا يقبل سهم ويصيب طلعته [صلوات الله عليه] .

أريد أن اعرض هنا ملاحظة مدى التفاوت بين هؤلاء وبين أهل زماننا . .

أحد « الطائفين » كان سعيد بن عبد الله . . الذي أصاب وجهه وحلقـه ثلاثة عشر سهماً .

قصـدي . . ملاحـظة اختلافهم عن أهـل هذا الـزمان الـذين يـريـدون ليصيّروا الذهب دِيناً !

وقع سعيد . انظر . . الىٰ أيّ حدّ كان يستقلّ عمله ! قال: أوَفيتُ . . يا

أبا عبد الله ؟ ! قال الإمام : نعم . . وفيت . وسألقاك في الجنّة .

أجَلْ . . يا أيّها الأشقياء ! لقد انغرزت السِّهام في قلبه وكبده ووجهه . . ومـا يزال في شـكّ من أمر نفسـه ، حتىٰ قـال: أوَفيت ؟ ! كـان في شـكّ من [حاله] في القيامة ! وأنت [بمعاصيك] ترمي قلب الإمام بسهم . . ومـوقن بالنجاة ؟ ! فهلاّ كان لك خوف ـ في الأقلّ !

أجَلْ . . دَعُونا من هذا ؛ فانّ لدينا موضوعاً آخر .

هؤلاء الشهداء استشهدوا اليـوم وهم علىٰ التصوّر الـذي كان عليـه مثل حبيب وبُرَير ومسلم بن عوسجة .

علىٰ سبيل المثال . . كان أحدهم حزيناً . سأله الإمام : ما يحـزنك ؟ قال : إنه ليحزنني أني لا أملك أعزّ من الروح أقدّمه فداءً لك !

أمس قلت : من الممكن تحصيل وسيلة المماثلة لشخص ؛ فقد وَرَد أنّ الله يهب مثل ثواب الشهداء لمن تصوّر حالة سيّد الشهداء ، فيقول : « يا ليتني كنتُ معكم » !

أيكـون هذا لمحض القـول بـاللسـان . . أم ينبغي أن يكـون تَمَنّيـاً لـه حقيقة ؟ ! عليك أن تلاحظ فيك هذه الحالة !

إنّه لاَدّعاء عظيم ! لا تُخادِع . . ! أتراك مستعدّاً لِتُورد علىٰ نفسك هذه المصائب التي وَرَدتْ عليهم . . وتهجر ما أنت فيه من الصحة وسلامة الجسد ووفور النعمة ؟ !

لا أجرؤ علىٰ الادّعاء أن كلّ من ذكر هذا الدعاء بلسانه . . فانّ الله يهبه ثواب شهداء كربلاء . [أيهبـه هذا] بمجـرّد القول ؟ ! إنّـه لكذب ! لا ينبغي لحالتك أن تكون كهذه الحالة !

وحالة [الاستعداد] هذه . . لا أجدها في نفسي !

أجَـلْ . في يوم عـاشوراء حـالـة ـ أقـولهـا . فـانـك لـو كنت حـاضـراً وتشاهد . . فلعلّك تتمناها :

كان الوقت مقارباً لظهيرة يوم عاشوراء . . أو مقارناً لِما بعد الظهـر ، إذ كان الأمر علىٰ غايته من الشدّة .

أكثر الأصحاب . . قد صُرعوا .

من جانب . . كانت النار مضطرمة في الخندق الذي أمر الإمام (روحي فداه) بحفره ، لئلاّ يصل الجيش إلىٰ الخِيام .

عمر بن سعد . . كان أصدر أمراً باضرام النار في خيام من استُشهد من الأصحاب .

كان الدخان يتصاعد من الموضعين :[الخندق والخيام] . من جهة . . الغبار الذي تثيره الخيول . النيران التي تشتعل من الجوانب والأطراف . لهيب حرارة الجوّ ، ولهيب العطش من جانب . . ، ولهيب الشمس .

في هـذه الأثنـاء . . كـان الإمـام يتفقّـد العيـال والأطفـال . الـرزايـا متفاقمة . . قد اشتدّت عليهم . ولا بدّ لصاحب الشأن أن يتفقّدهم ويسلّيهم .

وفجأةً . . خرجتْ حرائر حُرَمه المَصُونات . . من الخِباء !

لحظَتَها . . نادىٰ الإمام المبين بصوت عالٍ . . يخاطب بقيّة أصحـابه الذين ما يزالون علىٰ قيد الحياة :

يا حَمَلةَ التنزيل ! حاموا عن هذه الحريم . . !

إنّا لله . . وإنّا إليه راجعون .

سابع الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سُبْحانك اللهمّ وحَنانَيْك . تبارَكتَ يا إلهي وتعاليت . لا أُحصي ثناءً عليك .

يا ذا العَظَمة والجلال . يا مَلِك يا قدّوس،يا مُتعال. تاهَتْ في كبرياء هيبتك دقائق الأوهام . وآنحسرتْ دون النظر إليك خطائف أبصار الأنام . لا الأبصار تَثْبُت لربوبيّتك ، ولا القلوب تهتدي إلىٰ كُنْه عَظَمتك .

نَحْمدك علىٰ تَواتُرِ نَعْمائك . ونشكُرك على تكاثر آلائك .

ونصلّي ونسلّم علىٰ نبيّك محمّد ، أشرفِ خليقتك ، وأكرمِ بَرِيّتك . وعلىٰ عِتْرته الأئمّة المَيامين ، والسادة المطهَّرين ، وشُفَعاء يوم الدِّين ، والهداة المهديّين . .. عليهم أفضلُ صَلاةِ المُصلِّين ، صلاةً دائمة بدوام السماوات والأرضين .

بأبي وأمّي ونَفْسي وأهلي ومالي وأُسْرتي .. . الحسين المظلوم !

بأبي وأمّي ونَفْسي وأهلي ومالي وأُسْرتي . . الحسين المذبوح !

بأبي وأمّي ونَفْسي وأهلي ومالي وأُسْرتي . . الحسين الممتاز !

بأبي وأمّي ونَفْسي وأهلي ومالي وأُسْرتي . . الحسين المخصوص في كلّ شيء !

أريد اليوم بيان طرف من صفات سيّد الشهداء (عليه السلام) ؛ فللإمام ـ بصرف النظر عن موضوع « الفضيلة » ـ صفات مختصّة به . ذلك أنّ « الفضيلة » موضوع قائم بنفسه .

لا شبهةَ في أنّ النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) أفضل المخلوقين قاطبة . ولا شبهة [أيضاً] في أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) أفضل من سائر الأئمة [عليهم السلام] . ليس كلامنا الآن في هذا الصّدد . . إنما أريد أن أخلص إلىٰ القول :

إنّ للحسين [عليه السلام] صفات خاصّة به ، يمتاز بها عمّن سواه . لا يشركه فيها غيره . . حتّىٰ من هو أفضل منه لا يشركه في هذه الصفات .

ومع أنّي قد ذكرت في كتاب (خصائص الحسين) طائفة من الحالات والصفات الخاصّة به (عليه السلام) . . فإنّي أريد أن أقول الآن : إنّ « سيّد الشهداء » هو كلّه خصائص ! ذلك أني أرىٰ له امتيازاً في كلّ شيء . خُذْها من خلقة نوره . . إلىٰ يوم القيامة . . إلىٰ آخر يوم القيامة . . تجد « سيّد الشهداء » يمتاز عن غيره في كلّ شيء :

كان لنوره . . امتياز !

لِشَبَحه في « عالَم الأشباح » . . امتياز !

لظلّه في « عالم الظِّلال » . . امتياز !

لاسمه من بين الأسماء الخمسة[1] . . امتياز !

---

(١) هي الأسماء الخمسة الطيّبة لأصحاب الكساء : محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم) .

اسمه نفسه . . له امتياز ! تسميته . . لها امتياز !

كيفيّة تسميته . . لها امتياز !

الإخبار بولادته . . له امتياز !

الحمل به . . له اميتاز !

جُوده براسه . . له امتياز !

تُرْبته . . لها امتياز !

وهكذا . . خُذْها إلىٰ يوم القيامة . حتىٰ حشره في القيامة . . له امتياز !

وَرَد في الحديث أنّ فاطمة (سلام الله عليها) تقول [يوم القيامة] : أريد أن أرىٰ « حُسَيناً » علىٰ ما كان عليه يوم عاشوراء . فيأتي الخطاب : **« انظري إلىٰ قلب المحشر »** ! فتنظر لترىٰ . . **« فاذا الحسين قائم بلا رأس »** !

وليس هذا فحَسْب . إنّ لتراب مدفنه امتيازاً أيضاً . لـه امتياز حتّىٰ على التّربة التي دُفِن فيها النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) ، والتّربة التي دُفن فيها أمير المؤمنين (عليه السلام) . لتربته امتياز عن تربة النبيّ . . حتىٰ أرْبَت عليها ، وعلىٰ تربة أمير المؤمنين .

علىٰ سبيل المثال . . إنّ أحداً لم يقصد زيارة قبر آمرىءٍ قبل أن يُدْفن . أسمعتم أنّ أحداً قد ذهب لزيارة المدينة والنجف قبل دفن النبيّ وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما) ؟ ! أمّا « كربلاء » . . فقد قصدها كافّة الأنبياء ـ كما في الحديث ـ لزيارة قبر الحسين ، قبل أن يُدْفَن « سيّد الشهداء » في أرض « كربلاء » . . وخاطبوا الأرض : **« فيكِ يُدْفَن القمر الأزهر »** !

من امتيازاته أنّ السجود علىٰ تربته . . ينير إلىٰ طبقات الأرض السَّبْع .

التسبيح [بمسبحة مُتّخَذة من تربة قبره] له أجر خاصّ . وحتّىٰ إذا كانت المسبحة في يدك ولا تديرها بالتسبيح . . فانّها تسبِّح الله لك :

أكْـرِمْ بـهـا مـن سـبْـحـةٍ مُـرَجَّـحَـهْ
عـن حـامـلٍ يحـمـلها . . مُـسَـبِّـحـهْ ![1]

أرأيت . . أيّ مرتبة هذه ؟ ! أرأيت ماذا أعطىٰ الله سيّدَ الشهداء ؟ !

من خواصّ هذه التربة . . أنّها يُسْتَحَبُّ أن تُخلَط بالحنوط . فانّ مَن يُهيء الكفن والكافور يجعل التربة أصلاً داخلاً فيهما . وحين يوضع الحنوط على المساجد السبعة[2] . . تكون التربة مع هذا الحنوط . ويُستحبّ لِما يُكْتَب علىٰ الكفن أن يُكْتب بهذه التربة أيضاً . غير مهمّ أن يكون الخطّ جميلاً . أفترىٰ الملائكة لا يجيدون القراءة ؟ ! بعض الناس يُعْنىٰ بالحركات الإعرابيّة لدىٰ هذه الكتابة ! هذا غير مهمّ .

التغبّر بغبار تربة سيّد الشهداء (عليه السلام) . . له فضيلة كذلك .

الشفاء بتربته . . أمر معلوم .

حَمْل التربة للحرز . . وَرَد أنّها كالدّعاء .

ومن خواصّها . . أنّ المؤمن حينما يصل إلىٰ « كربلاء » يمسي محزون الفؤاد . وإذا ما نظر إلىٰ قبر سيّد الشهداء ، فانّه يجد قلبه قد تغير . . وهذه من علامات الإيمان :

« يَرْحَمُه مَنْ يَنظر إلىٰ قبره وقبر آبيه عند رِجْلَيْه » .

وكذلك سائر أموره ، بل كلّ شيء [يرتبط به] .

وله ـ في يوم عاشوراء ـ صفات مخصوصة به :

كان يبكي . . كما كان يصبر . كان « مضطرباً » . . وكان له وقار . المضطرب الوقور . . الباكي الصّبور ! تعفّر بالدم والتراب ، لكنه كان نورانياً وضيئاً .

---

(١) من أرجوزة السيد مهدى بحر العلوم (رضوان الله تعالى عليه) .

(٢) وهي الجبهة ، والكفّان ، والركبتان ، والابهامان.

أمّا حالاته الأخرىٰ . . فانّها موضوع كبير لا يستوعبها مجلس واحد ؛ إذ كلّ ما كان له . . كان خاصّاً به وحده . . حتّىٰ طريقة قتله ! ما أحد في العالم قد قُتل بمثل هذه القتلة . إن قتله هو كذلك من عالمه الخاص . وهذا له كلام أذكره عندما أقول بعدئذ : إنه ما من أحد في العالم قد قُتل . . إلا الحسين بن علي (عليه السلام) .

***

اليوم لي غاية أخرىٰ غير هذه . . فانّ حديث كلّ يوم ـ كما تعهّدتُ ـ خاصّ بمصيبة بعينها .

ممّا كان للإمام (عليه السلام) وخاصّاً به . . أنّ للذين استُشهدوا معه امتيازاً خاصّاً ، كما كان لاستشهاده هو الامتياز الخاصّ .

أتحدّث الآن . . عن شهداء أهل البيت .

أريد البَدْء بالكلام علىٰ شهادة شهيد له مَزِيّة علىٰ سائر الشهداء . لا شأن لي الآن بالشجاعة ولا بالفضيلة . امتيازه كان في « انكسار القلب » . له خصوصيّة في أن يجعل القلب ينكسر له . وكان قلبه هو أشدّ انكساراً . وفي قلب سيّد الشهداء (عليه السلام) كان له انكسار شديد .

فمن هو ـ إذَنْ ـ هذا المراد ؟ !

إنّه السيّد المؤتَمن ، قرينُ الغُصّة والمِحَن . . القاسم بن الحسن .

من امتيازاته . . أنّ كلّ الشهداء الذي توجّهوا إلىٰ الميدان ، كانوا بالغين مكلّفين إلهيّاً بالجهاد . ومع أنّ بضعة صِبْيان غيره قد قتلوا أيضاً [يوم عاشوراء] . . إلاّ أنّهم لم يكونوا قد [توجّهوا إلىٰ الميدان] للجهاد . ما ذهب إلى الجهاد ـ من غير بالغي الحُلُم ـ أحد من أهل البيت . . سوىٰ القاسم .

و[من غير البالغين] من الأصحاب . . يقال إنّ صبيّ تلك الامرأة العجوز قد قُتِل . . ذلك أنّ من كان حاضراً في كربلاء قد جاد بروحه . وبعضهم جاد بما هو أعزّ من الروح . . مثل تلكما الامرأتين العجوزين .

كان لأحداهما ولد لم يبلغ الحلم . . كان أبوه قُتل مع الشهداء . ركب هذا الولد الفَرَس . . وجاء يستأذن للخروج إلىٰ الميدان ، فقال [سيّد الشهداء عليه السلام] : أبوه قُتل ، وما لأمّه غيره . . ولعلّها تكره خروجه ، فليرجع . فقال : يا بن رسول الله . . **إنّ أمّي هي التي أمَرَتْني بهذا !**

علىٰ أيّ حال . . انكسار القلب لهذا الشهيد المظلوم ، سأتحـدّث عنه كلمة كلمة ؛ فانّ لكلّ منها تعزية خاصّة .

هـذا نَصّ كلام السيّـد ابن طـاووس . وآعلمْ أنّـه لا يـوجـد ـ في نقـل المراثي ـ من السيّد ابن طاووس . . وقد قلّ نظيـره في جلالـة القدر . وهـذه العبارة التي يذكرها تدلّ علىٰ استحكامه ودقّته ؛ ذلك لأنّ هذه وقائع . وينبغي تحرّي الدقّة في نقل الوقائع أكثر من تحريها في أدلة الأحكام . . التي هي أمور تعبّدية .

أجَلْ . . هكذا صوّر ابن طاووس شهادة هذا الشهيد :

« خرج القاسم بن الحسن . . وهو غلام صغير لم يبلغ الحُلُم » .

لا بدّ أنّه كان ابن ثلاث عشرة سنة ؛ لأنّ مدّة احـد عشـرة سنة كانت بين الإمامين ، أعني الإمام الحسن والإمام الحسين (عليهما السلام) .

« فنظر اليه الحسين ، فاعتنقه . . حتىٰ غُشِي عليهما » .

لا أدري . . لأيّ معنـىً كـــان هـــذا البـكـــاء ؟ ! لِمَ الـبكـــاء بـهـــذه الشدّة ؟ ! . .

والحال أنّ شهداء آخرين قد جاءوا واستأذنـوا ، فما سلك معهم الإمـام هذا السلوك ! علىٰ أيّ حال . . آنْجَلَت الغشية . . **« فآستأذنه . . فلم يـأذن له »** !

إنه الوحيد الذي مانَعَه الإمام .

« فلم يزل الغلام يقبّل يَدَيْه ورجلَيْه » . . !

***

نـذكر الآن . . واحـدة من مصائب « القـاسم » العظيمـة التي يذكـرهـا بعضهم ، ولا يصـدّقها آخـرون . وهذه المصيبـة أطلق عليها النـاس « عُـرْس القاسم » . . في حين أنّها أعظم مصائب هذا المظلوم . تصـوّرها العـوامّ من الناس علىٰ النقيض ، فقالوا : إنها « عُرْس » .

وإجمال الموضوع . . أنّ « القاسم » إذ لم يأذن له الإمام . . جلس في زاوية الفِسطاط . تذكّر أنّ أباه العظيم كان قد شدّ علىٰ ساعده تعويذة ، وأوصاه أنْ : إذا ضاقت بك الأمر . . فافتح التعويذة وأنظرْ اليها . فتحها « القاسم » ، ونظر اليها . . فوجد فيها :

« يا ولدي القاسم ! إذا رأيت عمّك الحسين . . . . » !

حمل رقعة أبيه التي كان مكتوباً فيها : « وإذا مَنَعك . . فألحَّ عليه » . . حملها وذهب إلىٰ عمّه العظيم . قال الإمام : لقد أوصىٰ أخي وصيّة أخرىٰ . أوصىٰ أن أزوّجـك ابنتي فاطمـة . ولتحقيق وصيّة أخي . . أو ليكن في هـذه الفاجعة من المصائب ما يكون . . ! حتّىٰ عقد زواجك مصيبة ! . . ثمّ أجرىٰ الإمام عقد الزواج .

أوضاع عرس فاطمة ـ لو كان حَدَث ـ ليس كمثل أعراس أهل البيت . . منـذ [عـرس] جـدّة العصمـة الكبـرىٰ (سـلام الله عليهـا) . . حتىٰ سـائـر [أعراس] أهل البيت . ولا هو مثل أعراس سائـر الناس . إنّـه نقطة تقف في قبالة كلّ الأعراس .

وأقول : كيف كان نقطة مقابلة ؟ ! أقـارنه بـأعراس أهـل البيت . أقارن عـرسها هـذا بعرس جـدّتها فـاطمة الكبـرىٰ سيّدة نسـاء العـالمين (سـلام الله عليها) .

في عـرس الصدّيقـة . . زُيِّنت الجِنان ، وراحت الحُـور العِين يُنشِـدن الأراجيـز ، وانشغلن بتلاوة (طـه) و(الطّواسين) . أشجـار الجنّة كـانت تنثر النِّثار . . والحور العين في فرح وابتهاج .

أمّا في عرس فاطمة هذه . . فكلّ الحوريّات كنّ يَلْطِمن الرؤوس ويَلْدِمن الصدور . كنّ جميعاً . . محزونات . الجِنان . . كانت تبكي . والسماء تنثر نِثارها . وما نثارها . . إلاّ الدّم !

أمّا كون عرسها نقطة في مقابل أعراس الناس . . فانّ أعراس الناس عادةً ما يُهيّأ فيها « مجلس العَقْد » . وفي المجلس . . يُوَزّع الشراب ، والحلوىٰ . في أعراس الناس . . تُزَيَّن غرفة خاصّة ـ بأنـواع الزينـة ـ [للعروسين] . في هـذه الأعراس : الحنّـاء . . الزّغـاريـد . . الـوليمـة . . الأثـواب الجـديدة للعريس .

أمّا هذا العرس . . فكلّ ما فيه نقطة مقابلة لأعراس الناس :

« مجلس العقد » . . المخيّم !

« مجلس الشراب » . . المقتل !

ولهذا العرس . . « غرفة زينة » . أجل ، كـانت للعريس غـرفة زينـة : العريس كان علىٰ « السرير » . أمّا العروس . . فكانت في المخيّم !

كان العريس في غـرفة المقتـل ! سريـره . . أجساد القتلىٰ التي وُضـع بعضها فوق بعض . كان سيّـدَ الشهداء قد وضعه فوق تلكم الأجساد .

والحنّاء . . كانت [أيضاً] نقطة مقابلة لحنّاء الأعراس :

أمّـا العريس . . فكـانت حنّاؤه في المقتـل ! وكانت حنّـاء العروس في المخيّم . . لمّا سلبوها أقراطها !

حمل العم صهره ـ في هذا العرس ـ علىٰ صدره . . ليأخـذه إلىٰ غرفـة الزينة ويضعـه علىٰ سريـره . . الذي هـو أجساد الشهـداء ، حيث جعله فوق أجسادهم . اعتذر العمّ من صهره . . قائلاً :

« عَزَّ ـ والله ـ على عمّك أن تدعوه فلا يجيبك . . أو يجيبك فلا تنفعك إجابته » !

العريس هنا علىٰ صدر عمّه . . والعروس هناك علىٰ صدر عمّتها !

اعتـذر العمّ . واعتذرت كـذلك العمّـة : مـا لـديّ خـرقـة لتغـطّي بهـا رأسك . . « عمّتكِ مِثْلُك » !

إلىٰ أيّ حدّ بلغت المشابهة بين حالة هذا العريس وهذه العروس ؟ !

في المقتل ضُرِب العريس بالسيف علىٰ وجهه . . فهوىٰ علىٰ الأرض !

وفي طـرف الخيمـة . . طُعِنت العـروس بـالـرمـح . . فسَقَـطتْ علىٰ التراب !

وكـان لهمـا أيضـاً . . « زَفـاف » . وقـد تمّ فعـلاً هـذا « الـزّفـاف » ! ولكنّ . . لا علىٰ النحو الذي يحكيه بعض الناس . . !

« العقد » : . كان في اليوم العاشر . أمّا « الزّفاف » . . فكان في اليوم الحادي عشر . . لمّا زُفّت العروس إلىٰ غرفة العريس المزيَّنة !

في ليلة زفاف فاطمة الكبرىٰ (سلام الله عليها) . . حين زُفَّت إلى دار أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) ، **كان أمامَها أبوها ، وعن يمينها جبرئيل ، وعن شمالها ميكائيل . . ومع كلّ منهما سبعون ألف مَلَك** .

نساء النبيّ (صلّىٰ الله علين وآله) . . كنّ ينشدن الأراجيز .

أمّا فاطمة الصغرىٰ . . فكان لها أيضاً « زفاف » !

حين زَفَفْنَها . . كان أبوها [مذبوحاً] مطروحاً علىٰ وجهه !

جهاز فاطمة الكبرىٰ . . كان شيئاً نَزْراً يسيراً . ولكنّ فاطمة هذه . . ما كان لها في زفافها من الجهاز شيء قطّ !

نعم . . كـانت النسـاء في ذلكم الـزفـاف ينشـدن الأراجيـز . وكـانت أراجيزهنّ علىٰ نمط معيّن . أمّا أراجيز هذا « الزفاف » فكانت على نمط آخر :

« هذا حُسَينٌ . . بالعَراء » ! !

المصيبة هنا ، ليست هذه التي قلناها . . فما تزال هناك بقيّة باقية . لمّا

زَفَفْنَها إلىٰ غرفة القتلىٰ ـ ونساء العرب يُطلقن في الزفاف الـزّغاريـد ـ كان لهنّ أيضاً زغاريد . لقد زَغْرَدْنَ في غرفة القتلىٰ . . ولكن : بالنُّواح والعويل !

من الأصول . . أن يرتدي العريس ثياباً حَسَنة ، ويقف عند طرف سرير [جلوس العروسين] . والمألوف في كثير من البلدان أن يضعوا عباءة على رأس العروس ، تمسك بأطرافها عدد من النساء . . إضافة إلى العباءة الأولىٰ [التي كانت عليها من قَبْـل] . أمّا في هـذا العرس . . فـلا أدري : أكان للعـروس [أصلاً] عباءة أولىٰ ، أمْ لا ؟ !

الليلة ، في وقت زفـاف العروس . . مـا كـان علىٰ العـريس ثيـاب ولا عمامة ! لقد سلبوه ثيابه وعمامته !

هذا كلّه . . ليس المصيبة ! لمّا وَصَلْن . . كان العـريس قد أُنـزل من سريره . سيّد الشهداء وضع « القاسم » من قَبْلُ فوق الجميع . ورد في الخبر أنه وضعه فوق القتلىٰ . وعندما وصلت العروس وَجَدَتْه قد أُنْزِل . ولكن . . لماذا أنزلوه ؟ ! ما عساني أقول ؟ ! لا أدري ! عندما وصلت العروس . . أكانوا قد فصلوا الرؤوس عن الأجساد . . أمّ لا ؟ !

هذه كيفيّة عرسه . . ولم أتحدّث إلىٰ الآن عن عزائه !

إنّا لله . . وإنّا إليه راجعون .

ثامن الأيام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سبحانك اللهمّ وبحمدك . تقدّستْ سُبُحات وجهك عن سمـة الحدوث والزوال . وتنزّهتْ سُرادقات جلالك عن صفة التغيّر والانتقال .

تعاليتَ في عزّ جلالك عن مطارح الأفهام . وتقـدّستَ في كبريـائك عن مشابهة الأنام . لك العُلوّ الأعلىٰ فوق كلّ عـالٍ ، والجلال الأمجـد فوق كـلّ جلال .

يا ملك ، يا قدّوس ، يا مُتَعال . نشكرك في الغدّو والآصال ، ونحمدك علىٰ جميع الأحوال ، ونستهديك بأفضل الأعمال .

ونصلّي ونسلّم علىٰ نبيّك محمد نبيّ الرحمة وإمام الأئمة ، سيّد الأولّين والآخرين والمبعوث رحمةً للعالمين . وعلىٰ أهل بيته، أئمة الهدى، ومصـابيح الـدّجىٰ ، وأعـلام التقىٰ ، وذوي النّهىٰ ، وأولي الحجىٰ ، وكهف الـورىٰ ، وورثةَ الأنبياء . . عليهم أفضل التحيّة والثناء ، ما دامت الأرض والسماء .

اليوم . . هو اليوم الثامن .

اشتدّت المحاصرة اليوم ، وضاق الأمر أمام الإمام (عليه السلام) .

منذ اليوم الثامن ، والعسكر يتوافد صباح مساء .

في مثل اليوم ـ أو أمس ـ كتب ابن زياد رسالة إلىٰ عمر بن سعد : « إنّي لم أجعل لك عذراً في كثرة الخيل والرجال » .

كانت مهمّة العسكر الإحاطة ، فحاصروا هذا المظلوم من كلّ صوب . وفي هذا جاء قول الحرّ: أتيتم به ، وحاصرتموه حتىٰ أخذتم بنَفَسه ؟ ! تُرى: ما كان أشدّ هذه الشدّة بحيث عبر عنها الحرّ بقوله :

« أخذتُم بنفسه » !

أحاط به العسكر خشية أن يأتي أحد للالتحاق بالإمام . . إضافة إلىٰ صدّ الإمام عن الذهاب إلىٰ مكان آخر .

مثل البارحة . . أرسل الإمام حبيباً بن مظاهر [الأسديّ] إلىٰ قومه [بني أسد] ، قرب كربلاء . وذهب حبيب اليهم ، ووعظهم . . فٱهتدىٰ أحد كبرائهم . وعزم هو وآخرون علىٰ الالتحاق بالإمام . . وانطلقوا سائرين .

وعلم ابن سعد بالأمر ، فبعث « الأزرق » الملعون مع عدّة آلاف ، ففرّقوهم . . ورجعوا . فعاد هؤلاء ، وارتحلوا مع قبيلتهم ، ونزلوا بعيداً عن كربلاء .

في تلكم الأيام الأخيرة . . قصد الإمام لنصرته أربعة أو خمسة أفراد من الكوفة . ولم يكن في تلك الأطراف سواها موضع مأهول .

طوق المحاصرة ما يزال ، ولم يذهب خلاله أحد من الكوفة . أتراكم تستطيعون ـ في عالم المعنىٰ أن تذهبوا ، أم أن أحداً منكم لا يذهب ؟ !

كلّنا ـ إن شاء الله ـ ذاهبون في عالم الحقيقة لنصرة هذا الإمام المحاصَر .

اليوم ـ ونحن ذاهبون ـ نحضر كربلاء . . إنّ شاء الله . وننظر إلى أطراف الفرات ، وهنالك نجد أنّه :

منذ البارحة ، أو أمس ، أو اليوم . . اصطفّ علىٰ طول نصف فرسخ من شريعة الفرات فرسان مدجّجون بالسلاح . ولكن : لمَ حدث هذا ؟ !

كما كتب الملعون في رسالته إلىٰ ابن سعد : « إني لم أجعل لك عذراً في كثرة الخيل والرجال » . . كتب له أيضاً : ضيِّق علىٰ الحسين ، « وحُلْ بين الماء والحسين وأصحابه » . . وقد طرق سمعي أنّهم أرادوا أن يحفروا بئراً ، فلا تدعوهم يفعلوا .

وأصدر حكماً آخر . .

سبحان الله ! إنّ الله (تعالىٰ) ليأمر بأمر ، والمطيعون من عبيده يتساهلون في أدائه . بَيْدَ أنّ هؤلاء الأشقياء قد سعوا كلّ السعي لتنفيذ أمر ابن زياد (لعنه الله) !

كان قد كتب : **« فلا يذوقوا منه قطرة »** .

وتنفيذاً لهذا الحكم . . أمر ابن سعد الملعون فرقة من الجيش بقيادة عمرو بن الحجّاج أن : أمسكوا بشريعة الماء ، علىٰ طول نصف فرسخ ، واستحكموا هناك .

ومنذ اليوم بدأ صوت « الاضطراب » . كان حديث المخيّم اليوم . . ونداءات المخيّم : « الماء ! الماء ! » .

نعوذ بالله من عين لا يجري دمعها في هذه الأيّام . . **« ونعوذ بك من عين لا تدمع »** .

في [قلوب] بعضهم قساوة . . فلا يجري لهم دمع من سماع هذا الكلام .

من لا يبكي اليوم . . يكن معلوماً أنّ ابن زياد ذنوبه[1] ، قد كتب إلى ابن سعد شقائه ، ووكّل به عمرو بن حَجّاج قساوته . . حتى لا يعطي من ماء

(١) الضمير في «ذنوبه» عائد الى ابن زياد، ومن شقائه عائد الى ابن سعد.

عينه قطرة إلىٰ نور عين النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) !

الذي كان . . أنّه في مثل هذا اليوم . . لم يكن في المخيّم من كلام إلّا عن « الماء » . ومجلسنا اليوم هو « مجلس الماء » ، فلا كلام لنا علىٰ غير الماء :

واعلم أنّ ربّ العالمين قد خلق الماء . . حيث لا أرض ولا سماء . ما كان في الفضاء الذي أوجده شيء سوىٰ الماء ، « وكان عرشه علىٰ الماء » . هذا الماء هو أصل خلقة السماوات والأرضين .

واعلم أنّ هذا الماء كان خلقه من أجل الحسين . كان من بركة الحسين . . وكان بواسطة الحسين .

ذلك لأنّ كافة المخلوقات خُلِقَت من أجل النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) ، كما في [الحديث القدسيّ] : « لولاك لَما خلقتُ الأفلاك » . ويقول النبيّ عن الحسين : « حسين منّي وأنا من حسين » . . فكلّ ما خُلق ، خلق من أجل الحسين .

وبعد أن خُلقت السماوات والأرضون . . هذا الماء المحيط بالأرض ـ ولم يكن مجعولاً للشرب ـ شاءت الحكمة البالغة أن تذهب به إلىٰ السماء ثم تأتي به إلى الأرض . . « فأسكنّاه في الأرض » ، ليغدو هذا الماء نافعاً ـ عندئذٍ ـ لتغذية المخلوقات . وبهذا التدبير الالهيّ صار ثلث الأرض « يابسة » ، وثلثاها « ماء » . . وهذا من بركة الحسين [صلوات الله عليه] .

هذا أصل تكوين الماء . أمّا ما يتصل بالأحكام الشرعيّة التي جعلها الشارع [المقدّس] للماء . . فهي :

إنّ أول أجر يُعطىٰ في القيامة من أجور الأعمال هو أجر « سقي الماء » . . فلهذا السقي إذن خصوصيّة خاصّة .

وقد جُعل في « الماء » حَقّ للجميع . في بعض حالات الماء كالنهر ـ حتىٰ لو كان صغيراً يمتلكه شخص ـ جعل المالك الحقيقي للعطاش أن يشربوا

منه ، سواء أعلمت أن مالكه من الناس راضٍ أم علمت أنه غير راض .

ومن الأحكام الخاصة : « سقي الماء » . . فـ « من سقىٰ كبداً حرّىٰ فله أجر » .

هذا الأجر المجعول علىٰ ريّ الكبد الحرّىٰ . . انما هـو لريّ كبـد كلّ أحد ـ حتى الكافر . لو أنّ أحداً أعطىٰ الكافر طعاماً لما كان له من ثواب ، لكن سقي الكافر ماءً . . له ثوابه .

يقول الراوي : كنت في محمل الإمام الصادق [عليه السلام] في طريق مكة . . فرأيت رجلاً مطروحاً تحت ظل شجرة « أمّ الغِيلان » . فقال الإمام : ائتهِ . . فلعلّه قد وقع من العطش .

يقول : فترجّلت ، ومضيت اليـه . ثمّ [عدتُ] وقلت لـلإمام : يـا بن رسول الله . . هذا [رجل] نصرانيّ قد وقع من العطش . قال : اسقهِ ماء . ثم قال [عليه السلام] : « لكلّ كبد حرّىٰ أجر » . . فلسقي هذا النصراني أجر .

أن يسقي المسلمُ المسلمَ ماء . . له أجر . أن يسقي المسلم الكافر . . له أجر . أن يسقي الكافرُ المسلم . . فله ـ ولو تخفيف من ذنوبه وعذابه . أن يسقي الكافر الكافر . . فله ـ ولو تخفيف العذاب .

كان النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) يتوضأ يوماً ، فمرّت به قطّة . . ونظرت إلىٰ المـاء . فقال (صلّىٰ الله عليـه وآله) : لا بـدّ أنها عـطشىٰ . عندهـا تـرك وضوءه ، وقرّب الماء من القطّة ، فشربت . ثمّ أتمّ وضوءه بما فضل من شراب القطّة .

من القضايا المتّصلة بالماء : لو أن أحداً كانت معه دابة في سفر ، وخشي أن لو توضأ بما معه من ماء لظلت الدابة عطشىٰ . . فان عليه أن يسقي الدابة ، ويتيمّم [بدل الوضوء] .

ويذهب [بعض الفقهاء] أنـه إذا كان في القـافلة دابة لـرجل آخـر . . فلهذه الحالة الحكم نفسه ، [أي يسقي الرجل دابة غيره ويتيمّم] .

أمّا إذا كان في القافلة رجل ذمّي [يهودي ، أو نصرانيّ] . . [قد استبدّ به العطش] ، فيقول [بعض الفقهاء] : نعم ، ينبغي أن يُسقىٰ لأنه من « أهل الذمّة » .

وبعد أن استبانت فضيلة سقي العِطاش . . أقول :

عاينوا [الآن] في هذه الصحراء ـ التي انتم إن شاء الله فيها الآن ـ تجدوا العطاشى مجتمعين في هذه الخيام ، وهم يُنادون : الماء !

ما هذه المَعْطَشة التي تضمّ فيها « ثلاثة أئمة »؟ ! أحدهم : الحسين ، والآخر : السجّاد ، والثالث : الإمام محمّد الباقر (عليهم السلام) . ومَن بقي فهم من أبناء الأئمة ، وأصحابهم من العلماء والفضلاء ، وأهل الأسرار ، والزهّاد ، والعُبّاد . . والأطفال ، والنساء .

الان . . يجيء الحديث عن سقي هؤلاء العطاشى . أي عطاشى هم ؟ ! يقول [الشاعر] محتشم [في بيت له] :

وحتّىٰ الآنَ . . ما زال النِّداء منهمّ
بأعنانِ السماءِ يُلامسُ العَيُّوقْ[1]

لقد جعل الله لهؤلاء العطاشى أربعة « سُقاة » :

أوّلهم : خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) . . إذ كان قائماً في ميدان كربلاء ، وبيده كأس . . لها وقت خاص .

السقّاء الثاني : الإمام الحسين نفسه ، فهو ساقي هؤلاء العطاشى . وسنذكر كيفيّة سُقياه .

السقّاء الثالث : لهؤلاء العطاش هو : العظيم المِراس ، المكين الأساس . . أبو الفضل العبّاس .

---

(١) هذه ترجمة شعرية للبيت . والعيوق : نجم يقع علىٰ طرف المجرّة .

السقّاء الرابع : لهؤلاء الظمآنين : عيون محبّيهم .

* * *

كـانت سقايـة السقّاء الأول [للعـطاشىٰ] بين واقعة الميـدان ، أي بعد القتل ـ إلا علياً الأكبر ؛ فمن المحتمل أن يكون النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) قد سقاه الماء في هذا العالم .

ويشهد لـ « السّقاء الأول » قول عليّ الأكبر [عليه السلام] : « يا أبتا . . هذا جدّي رسول الله قد سقاني . . . . » .

أمّا السقاء الثاني . . فأذكر الآن سُقْيا اليوم علىٰ نحو الايجـاز : انظروا كيف صنع من أجل السّقيا ! انظروا ما جـرىٰ له وما أصابه . . ممّا غفل الناس عن التنبّه له !

أمّا ثالث السّقاة . . فانّ مجلسنا اليوم معقود لبيان حاله .

نتحدّث أولاً عن سقاية « مظلوم كربلاء » .

عندما سُدَّ طريق المشرعة ـ منذ اليوم السابع حتىٰ ليل اليوم الثـامن . . مضىٰ الإمام [عليه السلام] خلف الخيمة . . فسار تسع عشـرة خطوة بـاتجاه القبلة . . وتناول تراباً من ذلك الموضع ، فظهرت عين ماء . . فشربـوا . ثمّ توارت تلكم العين . هذه هي السّقيا الأولىٰ لسيّد الشهداء .

ثمّـة سقايـة اخرىٰ تنبهت لهـا . كان همّ سيّـد الشهداء في طلب المـاء للعطاشى. وحتىٰ الآن لا يسعفني القول أنّ الإمام قد طلب الماء لنفسه ؛ إذ أنّ سجيّة سيّد الشهداء (عليه السلام) أنّ الطلب شاقّ عليه أشدّ المشقّة .

ليس يشقّ عليه كثيراً أن يطلب هو . . وحسب ، بل يشق عليه كثيراً أن يطلب أحد منه شيئاً ! قبل أن يقرأ الرقعة [التي كتب فيها طالب الحاجة حاجته] يقول له : **حاجتك مقضيّة** ! فيقال لـه : ولكنك لم تقـرأ الرقعـة ! فيقول : لـو فتحتُ الرقعة وقرأتها لذهب ماء وجه السائل ، ولأصابته ذلّة !

انظروا . . إلىٰ رجل يشقّ عليه أن يسأله أحد شيئاً : فما كان يحدث له

حين يكون هو السائل ؟ !

كان الإمام عند رأس أسامة [بن زيد في مرضه] ، وهو يقول : واغمّاه ! فقال له الحسين [عليه السلام] : وما غمّك ؟ فقال : دَيْني ، وهو ستّون ألف درهماً . فقال الإمام : هو عَلَيَّ . [قال أسامة : إنّي أخشىٰ أن أموت . فقال الحسين : لن تموت حتىٰ أقضيها عنك . فقضاها قبل موته] . . والحال أنّ أسامة لم يطلب من الإمام ، وما ذكر إلاّ اغتمامه !

إنّ امرءً يشقّ عليه ـ إلىٰ هذا الحدّ ـ أن يطلب منه أحد شيئاً ماذا يصيبه عندما يضطرّ ليسأل الماء ـ إتماماً لحجّة الله ؟ !

أراد الله [تعالىٰ] لسيّد الشهداء أنْ يعطي أهل الكوفة ماءً ثلاث مرّات . احداها : استسقاؤه لأهل الكوفة . والأخرىٰ : في صفّين لمّا منع معاوية عليهم الماء . والثالثة : عندما قدِم جيش الحرّ عطاشىٰ في الصحراء .

كان لا بدّ أن يثبّت أمامهم هذه الحقوق الثلاث في سقيا الماء . . لتتمّ الحجة .

أول الأمر . . أرسل اليهم رسولاً . ذهب بُرَيْر ، وتَحدّث معهم . . فلم يفلح ذهب الحرّ ، وكلّمهم . . فلم يَفُز منهم باجابة . أرسل العباس . . فلم يستجيبوا .

ذهب بنفسه . . يسأل ماء . قال لهم أوّلاً : أسألكم أن تعطوني ماء . . فلم يقبلوا .

ثمّ قال : إذا أبيتم اعطاء الماء لي ولأصحابي . . فأعطوا من أجل هؤلاء النسوة ـ في الأقلّ . وقال : إذا شربت النساء فلا يضرّكم شيء . نحن إذا شربنا نتقوّىٰ . . ولكنّ النساء ليس عليهن قتال . فلم يقبلوا .

فقال لهم : إذا لم تعطونا ولا النساء ماءً . . فأعطوا الأطفال الصغار ! فامتنعوا كذلك .

ثمّ تنزّل عن هذا اكثر ، وطلب طلباً آخر . قال لهم ! اعطوني ماءً

[للطفل الرضيع] . . فما استجابوا . مرّة أخرىٰ تنزّل في الطلب . . فذهب وأحضر الطفل الرضيع ، ولم يقل : اعطوني ماءً لأسقيه ، بل جاء به اليهم .

أتظنّون أنّ الفاجعة هنا هي في السهم الذي اخترق حنجرة عليّ الأصغر[1] ؟ ! أصل الفاجعة أن يأتي بهذا الرضيع إلىٰ الميدان . . وهو ـ فيما يبدو ـ قد كان في حالة احتضار [من شدّة العطش] ، قال لهم : « ويلكم ! اسقوا هذا الرضيع » ! (أي : جيئوا بالماء ، وآسْقُوه أنتم) « أمَا تَرَوْنه يَتَلظّىٰ عَطَشا » ؟ ! نقطتان ـ في موضوع الرضيع ـ تحرقان القلب . احداهما : قول الإمام : اسقوه أنتم ! والأخرىٰ حينما رفعه قائلاً : أما ترون كيف شحب لونه ، وهو يضرب بيديه ورجليّه ويتلظّىٰ من العطش ؟ !

* * *

مجلس اليوم لـ « السقّاء الثالث » . . أبي الفضل العباس (روحي له الفداء) .

أأحكي عن صفاته ، أم عن منزلته ، أم عن جلالة قدره ؟ !

للعباس [عليه السلام] ثلاثة ألقاب ، أحدها : « قمر بني هاشم » ـ وقد عُرِف به من قبل .

الثاني : « الطيّار » . . إذا قال الإمام [عليه السلام] : أعطاه الله ـ كجعفر الطيّار ـ جناحين يطير بهما مع الملائكة إلىٰ حيث يشاء من الجنّة .

ثالث ألقابه : لقب « السقّاء » . . .

أحكي الآن عن جوده بالروح من أجل أخيه . كان عماد الحماية والذود هذه الأيام بعهدة العباس . وفي الحديث : عندما قتل العباس زادت جرأة العسكر علىٰ قصد ناحية المخيّم ، أو لم تكن لهم هذه الجرأة ـ أصلاً ـ قبل مقتله .

أأتكلّم علىٰ جماله ؟ ! عن قامته المديدة ؟ ! أأحكي عمّن اذا ركب

---

(١) يقال لـ « عبد الله الرضيع » في ايران « عليّ الأصغر » .

الفرس العالي . . تخطّ قدماه على الأرض ـ لولا الرِّكاب ؟ !

كان الحسين (عليه السلام) يحبّه حبّاً عظيماً . . حتىٰ قال له : بنفسي أنت[1] !

اخوته لأمّه . . قدّمهم من قبل للقتل . ثمّ جاءت نوبته ، فعزم علىٰ الذهاب إلىٰ الميدان .

ولمّا رأىٰ الأطفال يتهاوون [من العطش] . . وبعضهم قد أسلم الروح . . أرجأ الذهاب إلى الميدان ، واتّخذ طريقه إلىٰ مشرعة الماء . وعندما ركب جواده . . ركب الإمام جواده كذلك ومضىٰ وراءه . وما أن ركب هذان الأخوان حتىٰ هجم العسكر ، وحال بين الأخوين .

رجع سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وركض العباس فرسه مسرعاً نحو شريعة الماء .

وهناك كان ما كان من مقاتلته ؛ إذ فرّق ألف فارس حتىٰ بلغ الماء . . ولكنه لم يشرب . انظر أيّ حالة تلك ! حمل الماء ، وما شرب ! إنّه ـ كما تذكر الروايات ـ تذكر عطش أخيه الحسين . ولكنّه ـ لا أدري ـ لمّا عبر من هذا العالم إلىٰ ذلكم العالم : أشرب الماء الذي قدّموه له . . أم لم يشرب ؟ !

وهناك غير هذا ! هناك . . حكاية القِرْبة : مَلْؤها بالماء ، وحملُها علىٰ الكتف ، صعوده [من المشرعة ، صيحة عمر بن سعد : لا تدعوه ! هجوم العسكر نحو المشرعة . . وسائر حالاته التي سمعتموها مراراً ، من قطع الكفّ ، وإصابة السَّهْم] .

والذي لم يستبن لي هنا [هو هذا الأمر] : انّ اليدين وقت قطعهما كانت المشرعة بعيدة عن المخيّم ـ ولا خبر يومئذ عن نهر « الحسينيّة » إذ لم يكن موجوداً في حينها ، وقد أسرع العبّاس [عليه السلام] بفرسه ليصل إلىٰ هناك [أي إلىٰ المخيّم] . . فلا أصْلَ إذَنْ لما يقولونه من أنّ الحسين [عليه السلام

---

(١) أي : أفديك بنفسي .

حين ذهب إلىٰ مصرع العباس وجد يد العبـاس المقطوعـة ؛ لأنّ لمصرع أبي الفضل طريقـاً إلىٰ المشرعـة من غير المخيّم . وللمخيّم نحـو مصرع العبـاس طريق آخر ، ووقعت يداه بين محل سقوطهما علىٰ الأرض والمشـرعة ؛ وعلىٰ هذا . . فان الحسين (عليه السلام) [لمّا ذهب إلىٰ موضع قتل العباس لم ير يده .

بعدها . . لا أدري : أأخذ سيّد الشهـداء اليدين المقـطوعتين وألحقهما بالبدن . . أم أنّ الملائكة حملتهما ووضعتهما مع الجسد ؟

فاجعة هذا « الساقي الظمآن » [بدأت] منذ تمزقت مزادة المـاء . ولمّا وصل ـ بعد قتل وكدح ـ إلىٰ موضع قبره الآن . . **« عند ذلـك وقف العبّاس »** ـ أي وقف في مكانه ولم يتحرّك .

كان لا بدّ أن يقف . . فما عساه يصنع ؟ ! وإلىٰ أين يذهب ؟ ! وهو لا يريد أن يفرّ [حاشاه] . . ولم تبق له يدان ليقاتـل . . وفي ظني أنّه مـا اتّجه نحـو المخيّم . . وكان ـ وهـو علىٰ هذه الحـالـة ـ يسمـع استغـاثـات العيـال ونـداءاتهم . علىٰ أيٍّ . . كان واقفـاً وهو علىٰ حـالته هـذه . . وإذا مطر من السِّهام ، كما في الأخبار . . **« فصار جلده كالقنفذ »** .

صـار ظاهـر جلده ودرعه ـ من وفـرة السهام ـ كـالقنفـذ . . ولم يتـوقف الفرس عندها عن الجَوَلان .

وعلىٰ حين غـرّة . . جاء سهم ، وانغـرز في صدره المبـارك . . فهوىٰ علىٰ الأرض .

أريد أن أقول : ليست فاجعته هذه التي سمعتَها . فاجعته تبدأ من هُوِيّه عن الفرس .

تصوّرْه ـ بتلك القامة المديـدة . . والفرس لا يكفّ عن الجـولان ـ يقع على الأرض . . فماذا يحدث ؟ !

كلّ السهام كأنّما انغرزت في كبده وأحشائه وبواطنه .

إنا لله وإنا إليه راجعون .



تاسوعاء

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تَوحّدتَ اللهمّ في عِزّ جلالك ، وتفرّدتَ في كبرياء جمالك . وتَحَيَّرَتْ في أشعّة أنوار جلالك أوهامُ المتوهّمين ، وتقاصَرَتْ عن إدراك كُنْه كمالِك أفكارُ المتفكّرين ، وتَضَعْضَعَتْ لجلالِ أحَدِيّتك قلوبُ العارفين .

نَحْمَدك حمدَ الشاكرين . ونؤمنُ بك إيمانَ المخلصين .

ونصلّي ونسلّم علىٰ نبيّك محمّد : سيّد الأوّلين والآخرين ، والمبعوث رحمةً للعالمين وحُجّةً علىٰ الخلائق أجمعين . وعلىٰ أهل بيته الأئمة الميامين والقَماقمة الأكرمين ، والهداة المهديّين ، والسادة المُطَهّرين ، والهداة الراشدين . . عليهمُ أفضل صلاة المصلّين ، صلاةً دائمة بدوام السّماوات والأرَضين .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأموَالِ والأَنْفُسِ والثّمَرَاتِ . . وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا : إنّا للهِ وإنّا إلَيهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

مَن يَمُت في عالم الدنيا . . فإنّه إمّا أن يُتَوفّىٰ وفاةً بالاحتضار ، أو يُتوفىٰ فجأة من دون احتضار، أو يكون مقتولاً ، أو مذبوحاً ، أو مكروباً يكون الكَرْب سبب وفاته . . وإما أن يتوفى مسموماً بالسمّ .

لكلّ مَن يغادر هذه الدنيا سبب واحد أو اثنان من أسباب [الوفاة] . . فهي أسباب العبور من هذا العالم .

بنفسي الحسين : المتوفّىٰ . . المُحْتَضَر . . المقتول . . المذبوح . . المنحور . . المسموم . . المكروب !

كلّ هذه الصفات . . تحقّقتْ لهذا الإمام المظلوم .

كلاّ . . إنّي لأقول إنّ كلّ سبب من هذه الأسباب له أسباب [أيضاً] . . للوفاة أسباب . للموت قتلاً أسباب . للموت ذبحاً أسباب . للموت نحراً أسباب . كلّ أسباب الوَفَيات هذه [بأنواعها] قد جُمِعت لهذا المظلوم .

وأشدّ من هذا . . أنّ من تتهيّأ له هذه الأسباب أحدُها أو كلّها ـ ولنفترض كلّها ـ فانها . . إذا جاءته تأتيه دفعة واحدة [وينتهي الأمر] . لكنّ هذا المظلوم قد حدثت له أسباب الموت والقتل والذّبح والنَّحْر . . مرّات عديدة .

إنّ هذه القضيّة ممّا لا يصحّ أن نذكرها بكلمة واحدة . . ثمّ نعبرها أقول : ما فارق الدنيا أحد ، وما قُتِل . . إلاّ الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) !

ما حَدَث لأحد ـ من أوّل العالم حتىٰ نهايته ـ أن يمضي من الدنيا على هذه الشاكلة .

قبل أيّام . . كنتُ ذكرت أنّ مسلم بن عَوْسَجة وزُهَير بن القَيْن وطائفة من الأصحاب ، قد تحدّثوا مع الإمام بما كانوا يتمنّون . أحدهم كان يتمنّىٰ أنْ لو يُقْتَل ثمّ يحيىٰ ثمّ يُقتل . . يُفْعَل به ذلك سبعين مرّة ! وتمنّاها غيره : ألف مرّة !

ما أشدّ ما في كلماتهم هذه ـ إزاء سيّد الشهداء ـ من الخُلوص ! [وما ذاك إلاّ] من أجل ألاّ يفارقوه !

فيا هؤلاء الذين لا إنصاف لهم ! لقد قتل سيد الشهداء ـ حقيقةً ـ ألف مرّة . . حبّاً لكم ، ولئلاّ تفترقوا عنه ! كلّ ذلك لتكونوا متديّنين ، ولتستقيموا علىٰ الدِّين . أرأيتم . . ما صنع من أجل الله ، لبقاء الدّين ؟ !

على أيّ حال . . إنّ الكلام علىٰ شيء من قتله وكربه وذبحه ونحره وسمّه . . سرجئوه إلىٰ غد ، لنتحدث عنه [حينئذٍ] إنْ شاء الله

* * *

مجلس اليوم . . اسمه ـ كما يعبّر الناس : مجلس « **شهادة عليّ الأكبر** » . لكنّي أعبّر عن هذا المجلس بأنّه مجلس « **وفاة الحسين** » ! وما هو بمجلس وفاة واحدة ، بل مجلس « **وَفَيات الحسين** » (عليه السلام) .

أريد أن أُجلّي ـ في هذه القضيّة ـ وفاة الإمام . أمّا قضيّة قتله . . فهي « واقعة » غد . اليوم يوم ذكر « موت » سيّد الشهداء . . ذكر « احتضاره » . . ذكر تسليمه [لله] . بل ذكر مَوْتاته ووَفَياته واحتضاراته !

ترىٰ . . ما السبب الذي يجعلني أتحدّث عن « موت » الإمام في [مجلس] « شهادة عليّ الأكبر » ؟ ! إنّ هذا يقتضي [أن نمهِّد له] بمقدمة :

أوّل شيء . . أنّه لا فجيعة بين الفجائع تصيب قلب امرىء مثل الاصابة بالأبناء . . بدليل آيات [من القرآن] ؛ فثمّة عدّة آيات تدلّ على هذا المعنىٰ .

إحداها الآية الشريفة التي تُلِيَتْ [في أوّل هذا المجلس] . . فالبلاءات في الآية [قد ذُكرتْ في سياق] ترتقي فيه [من حيث الشدّة] ، إذ تدرّجتِ البلاءات . . حتّىٰ بلغت اقصاها في بلاء « نَقْص من الثَّمَرات » . كانت مرتبة البلاء في « الأَنْفُس » [خلال هذا التدرّج] قبل بلاء « الثَمَرات » . ولكنْ . . أتظنّ أنّ « الثّمَرات » هاهنا هي المشمش والتفاح ؟! كلاّ . . إنما المراد من «الثمرات» . . ثمرات القلوب . أي : نبلوكم بفاجعة [فَقْد] الأولاد .

و[جاء] في آية أخرىٰ من الآيات : ﴿ إنّا وَجَدْناه صابراً ، نِعْمَ

العبد . . إنّه أوّاب ﴾ .

وقد ورد في تفسير الآية . . أنّ « أيّوب » بعد ابتلائه بِذَهاب كلّ ما كان لديه من أموال وسواها ، جاء ابتلاؤه بذهاب أولاده من الدنيا وموتهم . . فصَبَر علىٰ هذا البلاء ، واتّصف بصفة الصَّبْر : ﴿ إنّا وجدناه صابراً ﴾ .

أنْ يُفْجَع المرء بأبنائه . . هو أمضّ الفجائع . والوجدان ـ إلىٰ جوار الآيات والأخبار ـ علىٰ ذلك شهيد . خاصة إذا كان الولد مَجْمَعاً لصالح الخصال . وكلّما كانت خصاله أفضل كانت وطأة مصابه أمضّ . . حتّىٰ يبلغ الأمر إلىٰ ما بلغ بابراهيم واسماعيل (على نبيّنا وآله وعليهما السلام) ؛ إذ قال الله [تعالىٰ] : ﴿ فلمّا أسْلَما ، وتَلّهُ للجَبين ﴾[1] .

سلّم الوالد والولد لأمر الله . . وأوشك أن يضحّي بولده . كان [ابراهيم] قد تفطّن لخصال اسماعيل [ومخايله] ، فازدادت محبته في قلبه . . فأمره الله بذبحه . وفي [التعبير القرآنيّ] دقيقة من الدقائق البلاغيّة ، إذ حُذِف من التعبير جواب « لَمّا » . . فانّه ممّا لا ينقال . القول المحذوف ما هو بشيء مُحَدّد . . إنّما المحذوف علىٰ تقدير « كان ما كان » ممّا لا يعبّر عنه اللّسان . [أي : « فلمّا أسْلَما وتَلّهُ للجبين » . . كان الذي كان ! . .

أجَلْ . . إنّ المصيبة بالأولاد لا مثيل لها [في المصائب] . ومَن كان منهم ذا خصال كريمة فانّ المصيبة به تشتدّ . أمّا إذا كان الولد فريداً في كريم الخصال . . فكيف تكون ـ عندئذ ـ وطأة المصيبة ؟ !

وأقول الآن : ما كان لـ « عليّ الأكبر » يوم وقعتْ واقعة استشهاده من مثيل . نعم ، إنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) . . إمام . وسيّد الساجدين (عليه السلام) . . إمام . وكلاهما أفضل منه . ولكن ـ فيما يتّصل بصفات « عليّ الأكبر » ـ فانّه لا نظير له . . حتّىٰ قياساً إلىٰ هٰذين [الإمامَيْن] العظيمَيْن اللّذَيْن هما أفضل منه .

---

(١) تلّه للجبين : أي كبّه لوجهه .

ترىٰ . . من أيّ اعتبار [أقول هذا الكلام] ؟ ! [أقوله] من اعتبار أنْ لا أحـد ، في ذلكم اليوم ، يُشْبـه رسول الله (صلّىٰ الله عليـه وآله) ـ الـذي هو الأفضل ـ في جماله وفي خُلُقه ومنطقه ، كما يُشبهه « عليّ الأكبر » .

في جماله وملاحته . . كان شبيه النبيّ . وكان سيّد الشهداء (سلام الله عليـه) إذا اشتـاق إلىٰ النبيّ (صلّىٰ الله عليـه وآلـه) . . نـظر إلىٰ « عليّ الأكبر » .

جماله . . جمال النبيّ .

ولو أنّ أحداً كان قد رأىٰ النبيّ . . ثمّ سمـع نُطْق « عليّ الأكبـر » ـ من وراء جدار ـ لظنّ أنّه النبيّ .

وأرقىٰ من هذا . . ما قاله الله (تعالىٰ) عن خُلُق النبيّ : ﴿ وإنّك لَعَلىٰ خُلُقٍ عظيم ﴾ . وعليّ الأكبر ـ في الخُلُق ـ أشبَه خَلْق الله برسول الله .

الخَلْق والخُلُق والمنـطق . . كـان لا نـظيـر لـه فيهـا . أمّـا في مـراتب الجلالة ، وفي تعظيم الله ومعرفته . . فقد طرقَ سمعك أنّ سيّد الشهداء وقتما كان في منزل من منازل الطريق إلىٰ كربلاء [خَفَقَ برأسه خفقة] وانتبه يقول : « إنّا لله . . وإنّا اليه راجعون . والحمد لله ربّ العالمين » .

فقال له « عليّ الأكبر » : جُعِلْتُ فِداك ! مِمّ استرجعتَ وحمدتَ الله ؟ !

قال [عليه السلام] : خفقتُ برأسي خفقة . . فَعَن لي فارس يقـول : القوم يسيرون والمنايا تسـري اليهم . فعلمت أنها أنفسنا نُعِيَتْ إلينا .

فقال الأكبر : يا أبتِ . . ألَسْنا علىٰ الحقّ ؟ !

قال : بلىٰ ، [والذي اليه مرجع العِباد] .

فقال : إذَنْ . . لا نبالي أن نموت مُحِقِّين .

عندئذ . . قال له [أبوه،الإمـام]: جزاك الله مِنْ وَلَدٍ خير ما جَزىٰ وَلَداً عن والده !

كأنّما هو يعزّي أباه العظيم . .

* * *

أمّا القول في شجاعته . . فإنّه كما أورث النبيُّ شجاعتَه سيّدَ الشهداء . . فكذلك أورث أميرُ المؤمنين شجاعتَه عليّاً الأكبر .

في هذا اليوم (يوم عاشوراء) . . لمّا خرج إلىٰ القتال ، لم يَحْدُث أنّ أحداً من الشهداء ـ باستثناء سيّد الشهداء (سلام الله عليه) ـ قد قَتَل مئتي رجل . ولكنّ شابّاً ظامئاً مُتَعَباً يهوى بسيفه مئتي مرّة ، فيَقْتُل فيها مئتين من الرجال !

إنّ هذا لا يخطر لكم علىٰ بال . لو أنّ مئتي شخص مُقَيَّدين قد طُرحوا [علىٰ الأرض] . . أفتراك تقوىٰ علىٰ قتلهم ، من الآن إلىٰ وقت الظهيرة ؟! بَيْدَ أنّ عليّاً الأكبر ـ خلال نصف ساعة ، أو ربع ساعة ـ قد قتل مئتي رجل [في المعركة] .

ولقد مدحه خير الناس . . كما مدحه شرّ الناس .

يوماً ما . . كان معاوية (عليه الهاوية) جالساً في مجلسه . . فسأل [الحاضرين] : مَنْ أحقّ الناس بهذا الأمر ؟ ! [يريد : الحُكم والمُلْك] .

فقالوا : أنت .

قال : لا ، أولىٰ الناس بهذا الأمر عليّ بن الحسين [بن عليّ . جدّه رسول الله ، وفيه شجاعة بني هاشم . . .] .

ترىٰ . . أيّ خصالٍ عظيمة كانت لمن يُطْريه معاوية [نَفْسُه] هذا الإطراء ؟ !

الآن . . استبانت لك صحّة ما قُلْتُه من أنّ استشهاد « عليّ الأكبر » وفاة لسيّد الشهداء . كانت شهادة هذا السيّد . . الوفاة الأولىٰ لسيّد الشهداء (سلام الله عليه) .

وآعلمْ أنّ « عليّاً الأكبر » حين أقبل إلىٰ أبيه [يوم عاشوراء] طالباً الاذن

[بـالقتـال] . . كـان [شـأنه مـع أبيــه] علىٰ عكس مـا وقــع بين ابـراهيم واسماعيل .

هنالك . . ابتدأ الأب ولده بقوله : ﴿ **فـانْظُرْ . . مـاذا ترىٰ** ﴾ . الأب كان يريد ليجعل ولده راضياً [بما يريـد الاقدام عليـه] . فقال الـولد : ﴿ **يـا أبَتِ . . افعلْ ما تُؤمر** ﴾ .

لكنّ « عليّاً الأكبر » ـ هنا ـ لمّا أقبل . . كان هو قد استرضىٰ أباه . قال : إئـذن لي ـ يا أبتِ ـ بالقتـال . ما عسىٰ الإمـام أن يصنع ؟ ! حصـل الابن علىٰ الإذن . . ومضى ، ما كان أمام الحسين [عليه السلام] إلّا أن يأذن له .

الآن . . [حان] وقت « آحتضار » الإمام :

إنَّ نظرات الآباء إلىٰ الأبناء تكون ـ عادةً ـ علىٰ أنواع .

وكانت نظرة الإمام إلىٰ ولده . . علىٰ أنواع :

ينظر إلىٰ « عليّ الأكبر » مرّة . . على سبيل « **الوجد** » .

وينظر إليه أخرىٰ . . علىٰ سبيل « **الشوق** » إلىٰ جدّه [الرسول] .

وينظر أخرىٰ . . نظرة تعبّر عن « **الحسرة** » .

وأحياناً ينظر اليه . . نظرة « **خوف** » عليه . ما يُدريني كيف يكون شـأن هذه النظرة !

أمّا نظرة سيّد الشهداء إلىٰ « عليّ الأكبر » اليوم . . فما هي بواحدة من هذه النظرات !

« **فَنَظَر اليه . . نَظَرَ آيسٍ منه** » !

إنّها ـ إذَنْ ـ نظرة اليأس !

قلّده سلاحه . وكان هذا **أوّل « احتضارات » الإمام** .

النساء . . أقْبَلْن ، وأحَطْن به . قال [عليه السلام] : دَعْنَه [يذهب] !

ودّع [الأكبر] أباه . . وركب [فَرَسه] .

لا أدري ! لا بد أنّه هو أيضاً قد نظر نظرةً إلىٰ أبيه !

أترىٰ . . لوعة الوالد علىٰ ولده ـ وهو يمضي ـ كانت أشدّ ، أمّ لوعة الولد الذي قد مضىٰ ، تاركاً أباه وحيداً ؟ !

ركب [فرسه] . . وخطىٰ خطوات . الآن . . دخل الإمام في حال « الاحتضار » .

ما أن مضىٰ [الأكبر] قليلاً . . حتّىٰ أرخىٰ الإمام عينيه بالدموع ، ورفع شيبته المقدّسة نحو السماء . . وقال : « **اللهمّ آشهد علىٰ هؤلاء القوم . . فقد بَرَز اليهم أشبه الناس [خلقاً وخُلُقاً ومنطقاً] برسولك** » !

دعا ـ في دعائه ـ عليهم . . وذكر في خلال الدعاء من شمائل ولده . . وبكىٰ . رفع يَدَيه إلىٰ السماء . . قبض علىٰ شيبته الكريمة .

ما أن ابتعد [الأكبر] قليلاً . . حتىٰ لم يَعُد يطيق . مضىٰ وراءه . . ماشياً ، حتىٰ بلغ إلى حيث يسمع العسكر صوته . كأنّه يريد أن يقول : أيها العسكر ! أتسمعونني ؟ ! الآن قد بلغ قريباً من صفوف العسكر . . ونادىٰ : « يا بن سعد ! قطع الله رَحِمَك [كما قطعتَ رَحمي ، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله] !

وتلا آيات من القرآن :

﴿ **إنّ الله آصطفىٰ آدمَ ونُوحاً وآل إبراهيمَ وآلَ عِمْرانَ علىٰ العالَمين . . ذُرِّيَّةً بعضُها من بعض ، والله سَميعٌ عليم** ﴾ .

ذهب [الأكبر] إلىٰ الميدان . . ورجع الإمام .

طلب مَنْ يبارزه . أمّا [أفراد] الجيش . . فقد هيّمهم جماله . ارتجز . . وحمل عليهم . . فجندل منهم مئة وستّين .

أصابت بدنه جراحات . . واشتدّ به [أُوار] العطش . أُورار العطش ،

وحرارة الهواء ، وحماوة جَولان الفَرَس ، وغبار الميدان ! لم تبقَ له طـاقة . . فعاد إلىٰ أبيه . لكنّه ما فر . . فما وراءه أحد يتعقّبه .

جاء . . عند الخيمة ، « متحرِّفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة » . . وقَصَد أباه العــظيم . كـانت نـظرة الإمـام [الآن] إلىٰ طـلعـة « عليّ الأكـبـر » هي « احتضاره »الثاني .

ما سمعنا [في وقائع يوم عاشـوراء] أنّ أحداً من العطاشى قد طلب من الإمام ماء . . حتّىٰ الأطفـال . ذلك أنهم يـدركون أنّ طلبهم هـذا كم هو مؤذٍ للإمام .

عندما عاد « عليّ الأكبر » [إلىٰ أبيـه] لم يكن يريـد ـ بما هـو عليه من الأدب والمعرفة ـ أن يحرج أباه العظيم . لكنّ شيئاً عرض له إذ قال له : « يـا أبتِ . . العطش قد قتلني . . فهل إلىٰ شربة من الماء سبيل ؟ ! » .

مـا عسىٰ الإمـام أن يفعـل ؟ ! مـا عسـاه يقـول ؟ ! بكىٰ . . واحتضن ولده . . قائلاً : « يا بُنَيّ . . هات لسانك » . . ضعْه في فمي !

يـوم كان سيّـد الشهداء صغيـر السنّ . . عَطِش في وقتٍ مـا ، فأخـذَتْه فاطمة (صلوات الله وسلامه عليه) إلىٰ النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) . . فوضع النبيّ لسانه في فم الحسين وقال : مُصّ لساني تُرْوَ .

أمّا الآن . . فقد قال الإمام لـولده : ضـع لسانـك في فمي ! لماذا ؟ ! ذلك لأنّه وجد ولده علىٰ حالة من الضعف لا يقوىٰ معها علىٰ مَصّ لسان أبيه !

وكـان لدىٰ الإمـام خاتم . . وضعـه في فم ولده ؛ فـانّ بعض الأحجار [الكريمة] من خواصّها أنّها ـ إذا وُضِعتْ في الفم ـ تستجمع اللُّعاب .

ثمّ قال له :« يا بُنَيّ . . ارجع إلىٰ قتال عدوّك » !

وقال له شيئاً آخر . . قـال : عن قليل [إذا تمضي إلىٰ ذلكم العـالم] يسقيك جدّك كأساً [لا تَظمأ بعـدها أبـدا] . أي [كأنّـه قال لـه] : في عالم [الدنيا] هذا . . ليس لك ماء !

هذه أيضاً . . « وفاة » للإمام ، أو « احتضار » آخر .

مضىٰ إلى الميدان . . وارتجز مّرة أخرىٰ :

الحربُ قد بانتْ لها حقائقُ
وظهرتْ من بَعْدِها مصادقُ

قاتل . . وقَتَل ما تكتمل به عدّة المئتين .

عندئذ . . أمر ابنُ سعد نوفلاً وآخر أن يقصداه ومع كلّ منهما ألف فارس أو ألفان . . فيحيطوا به . و[فعلاً] جاءوه . . فهزمهم .

صرخ [ابن سعد] : ما هو إلاّ غلام ! لمَ لا تقاتلونه من أربعة جهات ؟ !

أحاطوا به من الجهات الأربع . وعندها جاءه [مُرّة بن] منقذ [العبديّ] غِيلةً من وراء ظهره . . فضرب رأسه المبارك بالسيف . . ففلق هامته .

أعْيَتْ « علياً الأكبر » الضربة . لم يكن في مقدوره ـ مع الهامة المفلوقة ـ أن يقعد من فوره على السَّرْج . . ولا غَيْرته تَدَعُه يُلقي بنفسه من الفرس ، فيخلو منه الرِّكاب . ما كان له من سبيل إلاّ أنْ عَمَد إلىٰ عنق فرسه فاعتنقه .

لم يكن للجواد ـ والحالة هذه ـ من منفذ للخروج . . فالأعداء قد أحاطوا به وأخذوا عليه كلّ سبيل .

الجواد . . احتمل هذا المظلوم إلىٰ معسكر الأعداء ، فتواردوا عليه من كلّ جانب ومكان . . « فجعلوا يضربونه بسيوفهم ، حتّىٰ قطّعوه إرباً إرباً » !

وإذ كان في هذه الحالة ـ أو حين هوىٰ إلىٰ الأرض ـ فاضت روحه [المقدّسة] .

الآن . . وقت « وفاة » سيّد الشهداء ، من دون احتضار .

في هاتيك اللحظة . . ارتفعت مرّة واحدة ثلاث أنّات ، أو ثلاثة أصوات .

الصوت الأوّل . . أنّ « عليّاً الأكبر » قد صاح لحظة ارتحاله :

« يا أبتاه . . عليك منّي السلام » .

هذا السلام . . يقـال له سـلام « التوديـع » . إذا قُدِّمتْ « عليـك » ـ أو بقرينة الحال ـ فانّ هذا السلام عندئذٍ يقال في وقت الوداع . . مثل : « في أمان الله » . . « مع السلامة » !

كان يريد أن يقول : يا أبتِ . . لقد عَبَرتُ إلىٰ العالم الآخر . اذا كنت تريد أن تحضرني [عند الوفاة] فانّه لم يَبْقَ في الوقت متّسع !

أرأيت إلىٰ غَيْرته و[علوّ] مقامه . . إذ كان يقدّر ـ وهو في حالته هذه ـ ما كان عليه أبوه من حرقة الفؤاد ؟ ! فانّك سمعتَ أنّه كان ذهب إلىٰ أبيه وطلب منه الماء ، ولم يكن مع أبيه ماء ليعطيه . لقد لمح في وقتها « حياء » أبيه . . فعمد الآن إلىٰ تسلية والده ، فقال له : « يا أبتِ . . هذا جدّي [يُقرؤك السلام] ، وقد سقاني [بكأسه الأوفىٰ] شربة لا أظمأ بعدها أبداً . . فلا تحزن ! » .

وقال قولاً آخر . . قال : يـا أبتِ . . لا أقول لـك أنْ تعالَ [معي] ، ولكنّي [رأيت] في يد جدّي كأساً [مذخورة لك] . . وهو يقول :

« يا بُنيّ . . يا حسين ! العَجَلَ . . العَجَل ! » .

الصوت الثاني الذي ارتفع . . كـان صوت الإمـام في الخيمة . مـا أن سمـع أنين « عليّ الأكبـر » . . حتىٰ قـال ـ بـلا اختيـار : « يـا بُنَيّ . . قتلوك ؟ ! » . ذلك أنّه أدرك مغزىٰ كلام « عليّ الأكبر » .

الآن . . أوان « وفـاة » الإمـام . وشـاهِـدُه حـديث العَلْيـاء المكـرَّمـة [السيّدة] سكينة (سلام الله عليها) . . فقد رُويَ أنّها قالت : رأيت أبي يدير عينيه في أطراف الخيمة . . وهو يجود بنفسه !

الصوت الثالث الذي ارتفع في هـذا الوقت . . صـوت العَليّة المكـرّمة [السيّدة] زينب : « يا حبيبَ قَلْباه ! واثمرةَ فؤاداه! » . . أو ما يقرب من هذه العبارات .

خرج الإمام من المخيّم . . قاصداً الميدان . كان يمشي علىٰ مَهْـل .

[مشيــه الآن] علىٰ عكس [مشيـه] إلىٰ ســائـر الشهــداء عنــدمــا يمضي لِيَحْضرهم . كان يقصدهم مسرعاً اليهم . وسرّ [مشيه الأن] على مهل . . أنه ما بقيتْ له طاقة علىٰ المسير !

بعـد قليل . . وصـل إلى جثمان « عليّ الأكبـر » . ومـا أن بلغ جثمـان ولده . . حتّىٰ كانت مصيبـة أكبر من هـذه المصائب ؛ فقـد رأىٰ ـ علىٰ بعض الروايات ـ امرأة عند جثمان « عليّ الأكبر » !

[لقد كانت . . أمّه ، ليلىٰ !] .

إنّا لله . . وإنّا اليه راجعون .

عاشوراء

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ كهيعص ﴾

﴿ ومَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً ، فلا يُسْرِف في القَتْلِ إنَّهُ كانَ مَنْصُورا ﴾ .

﴿ يا أيَّتُها النَّفْس المُطْمئنّةُ . . ارجعي إلىٰ ربِّكِ راضيةً مَرْضيّةً ، فادْخُلي في عِبادي وادْخُلي جَنَّتي ﴾ .

هذه الآيات . . في شأن هذا المظلوم .

لكلّ آية من هذه الآيات بُعْد وتفسير . ولكنّ لدينا اليوم شيء أهمّ من تفسير هذه الآيات .

في البداية . . علينا تهيئة حالتنا ، لأداء حقّ هذا اليوم .

الله . . الذي قال : ﴿ للّهِ جُنودُ السّماوات والأرض ﴾ ، يطلب من عبيده النُّصّرة . وقال : ﴿ إنْ تنصروا الله يَنْصُرْكم ﴾ .

والنّصرة لله هذه علىٰ أنواع . . أهمّ أنواعها : نصرة المظلوم . . نصرة « أبي عبد الله » المظلوم . . « ومَنْ نَصَره نَصَر الله . . ونَصَره الله » .

لقد تَلَوْتُم ، في زيارة الشهداء : « **السلام عليكم . . يا أنصار الله** » . . فعسىٰ أن تكونوا أنتم أيضاً من أنصار الله .

فيا أنصار الله . . اليوم يوم نصرة بالله !

النبيّ [صلّىٰ الله عليه وآله] استودع الأمة أمانة . ما استودعها أولئك الذين كانوا [حاضرين] تحت منبره [وحسب] . لقد آستودع الجميع : « الحسين بن عليّ » !

قال : « اللّهمّ . . إنّي أستودعكَهُ وصالحَ المؤمنين » . . فأنتم داخلون في « صالح المؤمنين » ـ إنْ شاء الله .

فيا أمناء الوديعة النبويّة . . اليوم يوم حفظ الأمانة !

اليوم يوم حفظ الأمانة . . فلا تفرّطوا بها ! إنّها أمانة النبيّ !

يوم خرج سيّد الشهداء من مكّة . . أخذ « جبرئيل » بيده ، ونادىٰ :

« هَلمّوا إلىٰ بيعة الله » .

لا أدري . . أبايعتم أنتم ؟

يا أهل البيعة الحُسَينيّة . . اليوم يوم وفائها !

أتراك تتعب اليومَ أيضاً ؟ ! أتغدو . . بلا توجّه ؟ ! اليوم يطول المجلس . . أتعتريك الملالة ؟ ! أَلَديك اليوم أيضاً شغل ؟ !

اليوم . . يُفتح باب من الجنّة . يُشْرَع باب واسع ، عظيم الاتّساع ، سهل المسلك .

أيّها المطرودون عن أبواب الجِنان ! اليوم يوم تُفْتَح فيه أبواب الجنان ، ببركة الحسين (عليه السلام) . . فتوسّلوا به ، وآدخلوها !

اليوم . . يُنْصَب سُلّم لترقّي الدَّرَجات . فيا أيّها الذين يهبطون دائماً في الدَّرَكات ! اليوم قد نُصِب سُلّم للصعود . . هو السلّم « الحسينيّ » ، فهلمّوا واصعدوا !

أيّها المعجون بنور ولاية الأئمّة ، أيّها المخلوق من طينة الأئمّة . . اليوم يوم يظهر فيه أثر معجونيّتك بنور ولايتهم ، وخَلْقِك من فاضل طينتهم !

اليـوم . . النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآلـه) ، وكلّ الأئمـة ـ وفيهم صاحب الأمـر (عليهم السلام) . . قـد أصبحوا بحـالـة متغيّـرة . الشمس هـذه التي تجري . . إذا اعترضها شيء ، فان الشعاع يعترضه هذا الشيء نفسه .

مَنْ كان من شعاع شمس الأئمّة . . يظهر اليوم علىٰ حالته التغيّر .

إذا كانت حالتك بمقتضىٰ حالة سيّد الشهداء . . فانّ وضعك اليوم وغداً وبعد غد ، سيكون كأوضاع الإمام [في هذه الأيّام] . وإذا صار وضعنا ـ بتوفيق الله ـ وفق أوضاع الإمام ، ولحـظتَ تغييراً يـطرأ علىٰ وضعك في ثـلاثة الأيّـام هذه . . فانّه يتجلّىٰ ويستبين ما إذا كنّا قد خُلِقْنا من فاضل طينتهم . . أمّ لا !

اليوم . .. يعلو صوت « استغاثه » الغريب . اسمها : « الـواعية » . هـو نفسه قال : « مَنْ سَمع واعيتنا ، فلم ينصرنا أكبّه الله في نار جهنّم » .

أريد اليوم أن يكون الكلام علىٰ حالات الإمام . . فنذكر حالات الإمام المعظّم منذ الآن إلىٰ مـا بعد الـظهر ، نـاظرين إلىٰ مـا تقتضيه كـلّ حالـة من حالاته . . ذلك أنّ :

له حالات ينبغي أن تُقابَل بـ « لَبّيْك » !

له حالات ينبغي أن « نصلّي » فيها عليه !

له حالات تستلزم أن « نُفَدّيه » !

له حالات تتطلب « الحياطة » منّا له !

له حالات تنقضي « الدفاع » عنه !

له حالات ينبغي أن « يُنْظَر » فيها اليه !

له حالات لا بدّ فيها من « تجهيزه » !

وهذه ستكون ليوم غد .

[الآن] . . اجعلوا نصبَ أعينكم : مخيّمه . . وميدانه . . وموضع قتله !

اجعلوا نصب أعينكم . . سيّد الشهداء ، وهو يريد أن يتعبّد لله تعبّداً خاصّاً ؛ إذ ما وقع لأحد ـ في يوم واحد ـ ما وقع له .

يريد أن يتعبّد لله تعبّداً يجمع كلّ الواجبات وكلّ المستحبّات وكلّ الخصال .

انظُرْ . . ولاحِظْه ، منذ طلوع الفجر إلىٰ الظهر أو إلىٰ ما بعد الظهر :

كيف . . يصلّي !

كيف . . يَعِظ !

كيف . . يقوم بالارشاد !

كيف . . يحجّ !

كيف . . يجاهد !

كيف . . يصوم !

كيف . . يفطر !

كيف . . يعود المريض !

كيف . . يقوم بالتجهيز !

كيف . . يسقي العطشان !

كيف . . يصوم شهر رمضان في يوم واحد !

كيف . . يعيّد عيد الفطر !

كيف . . يكون له عيد الأضحىٰ !

لاحظْ . . كيف تظهر فيه صفة آدم « صَفِيّ الله » ! كيف يرتقي منبر

« عَلَّمَ [آدمَ] الأسماء » . .. ويغدو مصداق « أعْلَمُ ما لا يَعْلَمون » !

لاحظْ . . كيف تتحقّق فيه صفة نوح « نجيّ الله » !

ويجلس في سفينـة نجاة العـالمين « سلام على الحسين في العـالمين » لاحظ كيف تتجلىٰ فيـه صفة ابـراهيم «خليل الله» ! كيف يبني الكعبـة ويصبح مصداق ﴿ وأذِّنْ في الناس ﴾ عاين كيف يقدّم ولده قرباناً ! انظرْ إلى ما يصنع !

انظرْ . . كيف تحصل له مرتبة موسىٰ « كليم الله » ! انظرْ اليه . . كيف يناجي الله في طُور صحراء « كربلاء » !

لاحظ . . كيف يتجلّىٰ فيـه عيسىٰ « روح الله » ! أمّا عيسىٰ . . « فمـا قَتَلوه وما صَلَبوه » . ولكنّ هذا قد قتلوه . . وأيضاً صَلَبوه !

انظرْ . . كيف تظهر فيه صفة يعقوب « اسرائيل الله » !

كيف تحصل له مرتبة يوسف !

وكيف تحصل له صفة زكريّا !

عاينْ . . كيف تتحقّق له صفة يحيىٰ « المظلوم » !

انظرْ . . كيف تَبينُ فيه مرتبة سليمان !

لاحظْ . . كيف يغدو هو نفسه اليوم : الكعبة وبيت الله ! وهو نفسه الذي يحجّ ! هو نفسه يعقد الإحرام . . وهو نفسه يلبّي ! هو نفسه يصبح « عَرَفة » ! ويصبح الوقوف بالمشعر ! هو نفسه يغدو « مِنىٰ » !

* * *

كلامنا اليوم . . عن هٰذه العبـادات المجموعـة . ولكلّ منهـا تفصيل . لصلاته ـ ظاهريّةً وباطنيّةً ـ تفصيل . تكبيره ، ركوعـه ، سجوده . . لكـلّ منها تفصيل .

أبيّن اليوم بعض أعمال حجّه الخاصّة . . فلاحظوا حالته :

أوّل صبح اليوم . . كان أحد أعماله « السَّعْي » بين الصَّفا والمَرْوة ! فثمّة

« عَرَفة » وكذلك « المشعر » و« الصّفا » و« المروة » . . وله « سعي » بين الصفا والمروة !

« الصفا » . . هو المخيّم !

و« المَرْوَة » . . موضع القَتْل !

[يسعىٰ] أحياناً بهرولة . . وأحياناً أخرىٰ بغير هرولة !

الآن . . استحضروا حالته . لاحظوا سعيه هذا ما بين المخيّم والمَقْتَل . لاحظوا ذهابه وإيابه هذا :

رجل ظامىء عَطِش . . قد أخذ عليه الأعداء كلّ سبيل . . وهذه المشقّات كلّها . . وهذا الذهاب والاياب [المتكرّر] !

أأتحدّث عن مرّات سعيه ؟ ! أأحكي عن طَوافاته ؟ ! أأذكر هرولته ؟ ! . . عن أيّ منها أتحدّث ؟ !

أنظرُ فجأةً اليه . . فأراه هو و« حبيب بن مظاهر » يَسْعَيان بين الصّفا والمَرْوة . مَضَيا إلىٰ شهيد . تبيّنَ أنّه « مُسْلم بن عَوْسَجة » !

مرّة أخرىٰ . . مضىٰ من الصّفا إلىٰ المروة ، ومعه « عليّ الأكبر » وثلّة ممّن معه . ذهبوا نَحْوَ شهيد . . وإذا هو « الحرّ بن يزيد الرِّياحيّ » !

سبعين مرّة رأيته يفعل ذلك ! حدّقتُ في احدىٰ المرّات . . فإذا هو قد مضىٰ بعيداً أبْعَد كثيراً [هذه المرّة] ، ولم يكن برفقته أحد . اتضّح أنه ذاهب إلىٰ ذلك « العبد الأسود » !

ولاحظت « وقوفاته » . . فإذا هي أنواع :

رأيتُه مرّة . . قد وقف . لاحظتُ أنّه ظلّ واقفاً . . ولم يجلس ! كان قد مضىٰ هذه المرّة مهرولاً في غاية السرعة . ثمّ وقف هذا الوقوف ! عاينتُ . . فرأيت ثمّة جسد « القاسم » !

ولكن . . لِمَ لَمْ يجلس ؟ ! ما كانت قد بَقِيتْ له روح ، ولا بقي له جسد

[يعينه علىٰ الجلوس] حينما رأىٰ « القاسم » وهو ما يزال يفحص بِرِجْلَيْه !

ونظرت أخرىٰ . . فرأيته جائياً الىٰ جسد آخر . . ووقف عنده . ما كان سعيه اليه طويلاً . . ولكنّه ما أن وصـل اليه ، حتىٰ قعـد ! لا أدري . . أقعد اختياراً . . أمّ تهاوىٰ بدون اختيار ؟ ! كان الجسد . . جسد « عليّ الأكبر » !

لمّـا قُبِض إبراهيم بن رسـول الله (صلّىٰ الله عليه وآلـه) . . قام النبيّ بكلّ أعمال تجهيزه ، ثمّ قال لعليّ (عليه السلام) : انزل . . فألحـد ابني . ونزل أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فالحد إبراهيم في لحد . فقـال الناس : إنّه لا ينبغي لأحد أن ينزل في قبر وَلَده ؛ إذ لم يفعل رسولُ الله (صلّىٰ الله عليه وآله) ! فقال لهم رسول الله : أيّها الناس ! إنّه ليس عليكم بحرام أن تنزلوا في قبور أولادكم . . ولكنّي لستُ آمَنُ إذا حلّ أحدُكم الكفنَ عن وَلَده أن يلعب به الشيطان ، فيَدْخُله عند ذلك من الجزع ما يحبط أجرَه والآن . . علاوة على أن وجه « علي الأكبر » ما كان عليه غطاء فقد صنع [الإمام] شيئاً أخر عمد إلى الدم والتراب . . . فمسحهما عن وجه ولده !

أجل . . . ان الحديث عن كل وقوفاته ، لحديث يطول .

كان يُشيّع بعضهم . . قائلاً : « احملوه . . ! » فيشيّعه .

وبعضهم . . كان هو مَنْ يحمله بنفسه !

حَمَل بعضهم . . ولم يحمل بعضهم الآخر ! ولكلّ حالة حكمة ، ولكلّ حالة سرّ . لكنّ الموضوع هنا يستعصي علىٰ الكلام .

وأنتم . . . أتريدون أن تكون حالتكم الآن ، كما هي في سائر الأيام ؟ !

خلال هذه المرّات ذاهباً وآيباً . . كان يضع القتلىٰ بعضهم فوق بعض . حدث هذا حين كانت هناك بقيّة [من أهله أو أصحابه] ، وأقلّها حين كان هناك نفر واحد [قد بقي معه] .

* * *

أريد أن أبدأ بذكر مصيبة الإمام . . منذ أن بقي [مُسْتَفْرَداً] وحده .

تصوّروا حالته :

بعد هاتيك الجراحات . . بعد المصائب ، وقد ظلّ وحيداً ما معه من أحد . .

« **فَنَظر عن يمينه** » . . فلم يَرَ أحداً .

« **فَنَظر عن شماله** » . . فلم يجد من أحد .

هدفه من النظر يميناً وشمالاً . . أريد أن أقول عنه : انّه كان ينظر ليرىٰ : أأنتم موجودون ؟ !

لا تظنّوا أنكم إذا تنصرونه اليوم . . فقد نصرتموه ، وكنتم له مَدَداً !

لسوف تمرّ بكم أنتم حالة تنظرون فيها ذات اليمين وذات الشّمال . . فلا تجدون أحداً [يغيثكم] . فانصروه الآن . . ينصركم في حالتكم [التي ستمرّ بكم] تلك !

ليكن نظر تصوّرك . . تلقاء المخيّم .

تصوّرته . . فإذا بي أراه واقفاً وحيداً !

أراه يمضي إلىٰ هذه الخيمة . . وإلىٰ تلك الخيمة . أدركتُ أنه يروم « التوديع » .

أشاهد النساء ، والأطفال . . كلّهم قد أحاطوا به . إنّه عازم علىٰ « الوداع » . كانوا في خيمة سيّد الساجدين (عليه السلام) حيث أراد الإمام أن يُوَدّعه ويُودِعه ودائع الإمامة .

النساء والأطفال محيطون به . . كالدائرة .

إنّ مَن يعزم علىٰ سَفَر . . فانّه يقول لعياله في آخر اللحظات : لقد أوصيتُ بكم « فلاناً » . وإذا أراد سيّد الشهداء (عليه السلام) الخروج . . لم يكن له من أحد [يوصيه بعياله] إلّا ربّ العالمين . قال : أستودعكم الله !

لاحظتُ وضعه . . فرأيته قد عزم الآن علىٰ المضيّ إلىٰ الميدان ،

ليؤدّي التكليف الالهيّ .

رأيته قد تهيّأ . بدأت طَلْعته تتورّد . . واحمرّت وجنتاه . علىٰ كامل الاستعداد . ثمّ خرج . ولكن . . بأيّ حالة ؟

بشَعْشعة محمديّة ، وسطوة عَلَويّة ، ولمعة أحمديّة ، وصَوْلة حيدريّة ، وبهجة حَسَنيّة ، وعَظَمة فاطميّة ، وشجاعة حُسَيْنيّة !

أراه : قد جاء مطمئناً ، في غاية الاطمئنان . لا ظمأه ، ولا اضطراب العيال . . جعله يضطرب .

كان مطمئناً تجلّله السَّكِينة .

أقبل . . ولكنِ انظروا كيف أقبل ؟ !

إنّي لأراه الآن وقد سار قليلاً . . إذ جاءت « صَبِيّة » في عَقِبه ! أصيخ السمع لأعرف ما تقول هذه الصبيّة .

بَلَغني صوتها . إنّها تقول : لي طلب ! لا أريد أن أمانعك . . ولكن : **« يا أبَهْ . . مهلاً ! حتّىٰ أتزوّد من نظري اليك » !**

ترىٰ . . لِمَ قالت : « أتزوّد » ؟ ! تعني : تمهّلْ ـ يا أبتِ ـ يسيراً ؛ فاني أريد أن انظر اليك قليلاً [نظرة تبقىٰ لي كالمتاع] !

توقف الإمام [صلوات الله عليه] ، أو تَرَجّل . . واحْتَضَنها ، وراح يواسيها وورد في بعض كتب المقاتل ـ ممّا لا اعتماد علىٰ سنده ـ أنّ هذه الصبيّة سألت أباها كذلك : أتعود مرّة أخرىٰ . . يا أبتاه ؟ !

اعتلىٰ [جواده] . . وهو بتلكم الطلعة ، بتلكم الشَّعْشعة ، بتلكم الصولة ، بتلكم الهيبة . . وعلىٰ رأسه عمامة رسول الله ، وقد تدرّع بالدرع . كان يريد [أن يُوقِفهم] علىٰ مآثره . ما أن بلغ قبالة العسكر . . حتىٰ راح يُذكّرهم بمناقبه ومفاخره ، ثمّ ارتجز . لا آتي الآن بِرَجَزه ؛ فإنّ ذكره يطول . . وَلَدَيّ أمر أهمّ من هذا !

بعدها . . ابتدأ بالتقال !

لا أقول إنّ سيّد الشهداء أشجع من أمير المؤمنين . . فهذا علىٰ خلاف الأدب . لكنّي أقول إنّه لم يحدث لأمير المؤمنين مثل هذا . . فتتجلّىٰ شجاعته علىٰ هذا النّحو . بهذه الحالة ، بهذا الهياج ، بهذا العطش ، بأنّات عياله من العطش ، بنظره إلى القتلىٰ ! إنّ كلّ واحدة من هـذه كافيـة لأن [تهدّ] المـرء وتجعله يتهاوىٰ إلىٰ الأرض . وبشكل خاص : النظر إلىٰ الأولاد والأجساد !

أذكر لكم طَرَفاً من شجاعته ، لئلاّ نُضِيـع حقّه . . فـأقولهـا على ثلاثـة أنحاء :

« فدعا الناس إلى البِراز . . فتهافتوا عليه !

فثبت لهم ثباتَ الجبل ، ووقف وقوفاً عجز [عنه] الأواخر والأوائل . فما بقي شجاع . . إلاّ وقد بقي منه الصَّهيل[1] .

« فلم يَزَل يَقْتل كلّ مَن بَرَز اليه من عيون الرجال . فلم يبرز اليه أحد بعد ذلك » !

هذه فِقْرة من مقاتَلَته .

« فَحَمل عليهم بنفسه الشريفة ، فآصطلىٰ للحرب نارها » !

يقول عبد الله بن عمّار بن عبد يَغُوث :

« فلقـد كان يحمـل فيهم ـ وقد تكمّلوا ثـلاثين ألفاً ـ فينهـزمـون من بين يَـدَيْه . . كـأنّهم الجَـراد المنتشـر . خَـرَق منهم الصفـوف قبـل مقـدّمتهم[2] وساقَتِهم[3] ، وقلبَ قلبَهم[4] ومن ميمنتهم وميسرتهم . . ففرّق جماعـاتهم ،

---

(١) أي : لم يبق إلاّ صوت صهيل فرسه .
(٢) ساقة الجيش : مؤخّرته .
(٣) مقدمة الجيش : طليعته .
(٤) قلب الجيش : وسطه .

وأسقط ألويتهم وراياتهم » .

لقد دَحْرَج رؤوسهم ، واحداً واحداً . . من أمام سيفه كالجراد .

« ثمّ رجع إلىٰ مركزه . . وقال : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله » !

ولمّا رأىٰ العسكر [ما صنع بهم] . . أحاطوا به من بعيد ، ولم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب .

قصد بعض هؤلاء جهة المخيّم . . فاضطرب ! أسمعتم ؟ ! لقد رجاهم ! انظروا إلىٰ همّته في حفظ عياله ! قال : « اقصدوني بنفسي » .

شمر الملعون [كأنّما] رقّ له في هذه الحالة ، فصاح بهم : أيّها العسكر . . لا يَذْهَبنّ أحد نحو المخيّم ؛ فليس عاراً قَتْلُ أحدكم علىٰ يديه . . « اليكم عن حرم الرَّجُل » !

في خلال هذا . . كان يذهب مرّات الىٰ « الفرات » . ولست أعتقد أنّ الإمام كان يريد الماء لنفسه . إنّما أراده للأطفال . أراده للنساء . أراده للطفل الرضيع . أجل أراد الذهاب مرّات . أراد أن يريهم وضعه ـ بلسان الحال ـ لعلّهم يرقّون له . كان يقف ليدركوا ما أضرّ به العطش . [نعم . . رقّوا له] ! لكنْ . . علىٰ أيّ نحوٍ كانت رقّتهم له ؟ !

الإمام . . كان واقفاً في مكان . . لِيُفهمهم ـ بلسان الحال ـ ما فعل به الظمأ . كان واقفاً في موضع يتراءىٰ منه ـ علىٰ البُعْد ـ ماء الفرات ! فناداه ملعون : أترىٰ الماء ؟ ! لا نسقيك منه قطرة . . حتىٰ تذوق الموت غُصّة بعد غصّة !

ومهما يكن . . فقد حاول [الإمام] حتىٰ وَرَد الفرات . لكنّه لم يشرب . . وقفل راجعاً نحو المخيّم !

الآن . . جاء [أيضاً] لتوديع العيال . قال للنساء : « تَغَطّين بإزاركنّ » !

في هذه المرّة . . لاحظَ حالة العيال . لاحظَ حالة العِطاش . . علىٰ ما

كان في جسده كلّه من الجراحات (يقول حميد بن مسلم : دماء الجراحات التي اصابته قد ملأت زَرَد الدرع !) . فأبت حميّته [للعيال] فحمل حملته التي تجلّت فيها « الشجاعة الحسينيّة » .

لقد قَتَل منهم ـ كما في الحديث ـ مقتلة عظيمة . . « حتىٰ بان فيهم النُّقْصان » !

عندها . . عرض لبدنه الضعف . . فوقف ناحيةً ليستريح قليلاً . « فبينما هو واقف . . إذْ أتاه حجر ، فوقع في جبهته الشريفة » .

رفع طرف الثوب ليمسح الدّم عن عينه المباركة وطَلْعته النورانيّة ، فانكشف صدره . . عن الموضع الذي طالما كان رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) يقبّله . فأتاه ـ بغتَة ـ سهم له ثلاث شُعَب ! تندفّق الدم من صدره المقدّس . . كالميزاب ! لقد كان هذا الدّم . . دم قلبه . فأخرج السّهم من ظهره ، وهو يقول : « بسم الله . . وبالله » !

في هذا السّهم . . قُضِي الأمر ، ووهنت يده عن حمل السيف !

العسكر الذي كان يحيط بالإمام من بعيد ، ولم تكن له الجرأة علىٰ الدُّنُوّ . . استبان له ما أصاب الإمام من الوهن .

فيا أيّها الإخوة ! لم الآن مع الإمام من أحد ! عندما قُتِل أصحابه . . كان معه أهل بيته . وهؤلاء حين كانوا يمضون إلىٰ الميدان . . كان أحدهم يمضي ، ويبقىٰ الآخَرون . . وبعد أنِ آستُشهد أهل بيته . . كان بيده السيف ، يفعل به ما كانوا يفعلون [من الدفاع] . . فكان السيف حارسه وحافظاً له .

أمّا الآن . . فقد وقع السيف من يده ، ولم يَبْقَ له غيركم !

الآن . . وقتكم لحياطته ، للدفاع عنه ، لتفديته [بالأَنْفُس] . .

عليكم أن تنظروا عدّة نظرات . عليكم أن تلتفتوا عدّة التفاتات :

واحدة . . أن تنظروا اليه : أين هو ؟ ! وماذا يفعل ؟ !

وواحدة . . إلىٰ المخيّم ، حيث يذهب ويجيء !

وواحدة . . إلىٰ جهة الميدان !

هذه النظرات . . ينبغي أن تكون متتابعة ؛ لأنّ هذا وقت بلغ فيه الأمر أقصىٰ شدّته !

الآن . . انظروا اليه .

نظرتُ . . فرأيته :

جالساً علىٰ الجواد . . والعسكر قد أحاط به ، علىٰ مقربة منه !

نظرتُ أخرىٰ لأراه . . **فما وجدته علىٰ ظهر الجواد ! كان نازلاً من فرسه . . واقفاً في وسط الميدان !**

نظرتُ ثالثة ، لأراه واقفاً . . ولكنّي لم أجده ! **كان قاعداً في وسط الميدان !**

نظرت مرّة أخرىٰ . . **فلم تَرَ عيني شيئاً ! والجوّ مظلم . . مُدْلَهِمّ !**

آه ! . . واحزناه !

ما يزال لك من أعمالك الآن أربع نظرات . . إلىٰ أربعة « أشياء » ! رغم ظلمة الجو . . فانّ هذه « الأشياء » الأربعة تُشاهَد ، ذلك أنّها « أشياء » نورانيّة .

نظرتان منهما إلىٰ السماء . . حيث « شيئان » يهبطان من السماء إلى الأرض . و[نظرتان] إلىٰ « شيئين » يعرجان من الأرض إلى السماء .

أمّا النظرتان الأُوْلَيان . .

فقد نظرت . . فرأيت نوراً . أنعمتُ النظر . . فرأيت « جبرئيل الأمين » يهبط من السماء ، وَلَدَيْه كلام [يريد أن يقوله] !

النظرة الثانية منهما . . رأيت فيها نوراً . رأيت النبيّ (صلّىٰ الله عليه

وآله)يهبط من السماء ، مُغْبارّاً ، متغيّر الأحوال . . نازعاً عمامته !

هاتان النظرتان الأُوْلَيان . أمّا النظرتان الأُخْرَيان الأرضيّتان . .

فقد نظرتُ في أُولاهما . . فشاهدتُ مَلَكاً يحمل « قارورة » وعـرج بها إلى السمـاء . قارورة زمـرّديّة كـانت . . وفي داخلهـا « شيء » ! ولمّـا دَقّقتُ النـظر . . لاح لي فيها « دَم » . أنعمتُ النـظر . . فرأيت « دم الحسين » في القارورة التي كان يعرج بها إلىٰ السماء !

أمّا ثانية النظرتين . . فقـد رأيت خلالهـا « شيئاً » يصعـد إلىٰ السماء ، ولكنّه لم يبتعد كثيراً عن الأرض . لم يرتفـع عن الأرض إلّا بمقدار مـا يرتفـع الرمح ! توضّحتُه . . فوجدتُ « رأساً » علىٰ سِنان رمح ! توضّحتُه أكثر . . فإذا هو « رأس الحسين » . . علىٰ الرمح !

إنا لله . . وإنّا إليه راجعون .

حادي عشر الأيام

بسم الله الرحمٰن الرّحيم

سُبحانَكَ اللهمّ وبحمدِك . لا أُحصي ثناءً عليك . . أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسِك . لا يُجاوزك رجاءُ الرّاجين ، ولا يَصِفُك نعتُ الواصفين . ولا يَضيعُ لَدَيْكَ أجرُ المحسنين .

برحمتك يستغيثُ المذنبون . وإلىٰ ذكر احسانِك يفزعُ المضطرّون . نَحْمَدُك على آلائك المتواترة ، ونشكرُك على آلائك الظاهرة الزاهرة .

ونصلّي ونسلّم علىٰ نبيّك : نبيِّ الرحمة ، وكاشفِ الغُمّة ، ومُنْقِذِ الأمّة ، الصَّفِيِّ المقرَّب ، والحبيب المهذَّب . وعلىٰ أهلِ بيتِهِ الأُمَناء ، البَرَرة الأتقياء . . عليهمْ مِنَ الله آلافُ من التحيّة والثناء ، ما دامت الأرضُ والسماء .

قُضِيَ الأمر !

لا نُصْرَتُنا أثمرت ، ولا بيعتُنا ، ولا إعانتنا ، ولا دفاعنا ، ولا حياطتنا . لقد قُضِي الأمر .

أتراكم تفهمون من قولي : « إنّ الأمر قد قُضي » . . أنّ المصيبة قد بلغت خاتمتها ؟ ! كلّا . . ما هكذا قصدت . إنّ معنىٰ ما قلت هو أنّ أوّل المصيبة يبدأ اليوم ! لاحظْ مثلًا :

عشيّة « عاشوراء » . . كان سيّد الشهداء [معتزلاً] في خِباء له ، يُصْلح . . وينشد :

يا دهرُ . . أفٍ لكَ من خليلِ
[كم لك بالاشراقِ والأصيلِ]
[من صاحبٍ وطالبٍ قتيلِ
والدهرُ لا يَقْنع بالقليلِ]
[وانّما الأمرُ إلىٰ الجليلِ
وكلّ حيٍّ سالكٌ سبيلي]

يشير إلىٰ هذا الأمر . . [المحتوم] .

العلياء المكرّمة « زينب » . . سمعت ما قال أخوها ، فأخذتها الرِّقّة والجزع ، [فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها] حتىٰ انتهت اليه . قالت : « يا أخاه . . هذا كلام من أيقن بالموت » ! فقال : « نعم . . يا أختاه » . . أي : لا ريب في القتل !

قالت العلياء السيّدة « زينب » : « [يا وَيْلتاه ! أفتغتصب نفسك اغتصاباً ؟!]» أي : أمسيت ولا حيلة لك ؟ ! [فذاك أقرح لقلبي وأشدّ علىٰ نفسي] !

. ما أن سمعت ما قال أخوها . . حتىٰ حَسَرتْ عن رأسها ، وهَوَتْ إلىٰ جيبها فشقّته . ولم يكن في الخِباء أحد . . غير الإمام .

كان هدفي أن أتحدّث عن أول فجائع البارحة ـ أي ليلة الحادي عشر . . فلِمَ أتيتُ بحكاية « ليلة عاشور » هذه ؟ !

العلياء المكرّمة « زينب » لمّا سمعت قول أخيها ليلة « عاشوراء » . . هكذا حدث لها : خَرّتْ مغشيّةً عليها . فكيف ـ إذَنْ ـ كان حالها البارحة ؟ ! أين كان أخوها ؟ ! اخوتها كانوا في المقتل [مُصَرَّعين] .

أمّا الرأس المبارك لأخيها . . فمن المحتمل أنه كان البارحة ـ ليلة

الحادي عشر ـ في دار خِوَلّىٰ !

أَجَلْ . . البارحة بدأ أوّل المصيبة !

بيعتنا ، واعانتنا ، وتلبيتنا ، ونُصْرتنا . . كلّها لم تَنْجع ! إلاّ أنها ـ إذا كانت منّا علىٰ وجه الحقيقة ـ يُكتبُ لنا أجرها . . إنّ شاء الله .

في مثل البارحة . . استعدّ خمسة رجال من أهل الكوفة للقدوم إلىٰ الإمام في « كربلاء » . ومع أنّهم لم يفوزوا بالاستشهاد [معه] . . إلاّ أنّهم قد سَعَوا للاستشهاد سَعْيَه .

مثل البارحة . . وقد مضىٰ هزيع من الليل ، وصلوا إلىٰ موضع يبعد بضعة فراسخ عن « كربلاء » . وقد قرّ قرارهم أن يبيتوا ليلتهم هناك . . ليواصلوا مسيرهم في الصباح ، إلىٰ حيث الإمام . .

في قرية يقال لها « ساهي » كانت ثمّة أكمة من الشجر . وكان قد انسلخ شطر من الليل حين دخلوا هذه الأكمة . . للمبيت هناك ، وليتوجّهوا صباحاً إلىٰ الإمام .

وإذْ هم جلوس . . دخل عليهم رجلان [شيخ وشاب] علىٰ هيئة غريبة ، فسألوهما عن حالهما . قال أحدهما : أنا رجل من الجنْ . . وهذا ابن أخي ، « جئنا لنصر هذا المظلوم » . وقد علمنا بقدومكم لنصرته . . فعزمنا علىٰ مرافقتكم اليه .

وقال هذا الرجل أيضاً : الآن أمضي طائراً إلى «.كربلاء » فآتيكم بخبر القوم !

غاب هذا . . ثمّ بعد مدّة رجع . . وهو يصيح بصوت رفيع :

والله مَا جئتكم حتّىٰ [بصرتُ به
بالطفّ . . مُنْعَفر الخدَّيْنِ ، منحورا] !

[وحوله فتية تدمىٰ نُحورُهم
مثل المصابيح يُطْفُون الدجىٰ نُورا] !

من هذه العبارات الشعريّة التي قالها أستنبط شيئاً . فماذا تراه مغزىٰ قوله :

. .   . .   . .   بصرتُ   به
بالطفّ ، مُنْعَفر الخدّين . . منحورا !

الرأس الطاهر للإمام . . كان قد قطع قبل ذلك في النّهار . وحين ذهب هذا الجنّيّ إلىٰ « كربلاء » كان الرأس مقطوعاً . . فكيف تأتّىٰ له أن يدرك أن وجه الإمام كان علىٰ الرمضاء ؟ !

لا ريب أنّه لمّا مضىٰ إلىٰ « كربلاء » ، وشاهد الجسد الطاهر [مقلوباً علىٰ وجهه] . . استبان له أنّه [عليه السلام] قد قتل ووجهه علىٰ التراب .

* * *

على أيّ حال . . كنّا قد اجتمعنا أمس للنُّصْرة والاعانة . . فلماذا اجتمعنا اليوم إذَنْ ؟ !

لقد جئنا اليوم لـ « **تجهيز** » هذه النعوش المُصَرَّعة !

ولكنّ هذه النعوش لا تجهّز اليوم ! ذلك أنّ للتجهيز وسائله وكيفيّاته . . ممّا لا يكون اليوم !

اليوم [أيضاً] تظلّ هذه النعوش علىٰ الأرض . . لأنّ التجهيز يحتاج إلىٰ « وليّ » [المتوفّىٰ] . و« الوليّ » . . قد أخذوه مغلولاً بالسلاسل والقيود ! لا « الوليّ » حاضر الآن ، ولا الكفن موجود . . ولا الكافور . نعم ، إنّ الشهيد لا يحتاج إلىٰ كفن . . إذا كانت ثيابه ما تزال عليه !

التجهيز . . يؤجَّل إلىٰ غد . ولعلّنا نفوز [بحضور] آخر التجهيز ـ إنّ شاء الله .

هاهنا اليوم يظلّون . الأجساد ظلّت البارحة ، والليلة ستبقىٰ [أيضاً] !

أمس أمَرَ سيّدُ الشهداء أهله ـ لدىٰ احتضاره ـ أن يجتمعوا حوله . أمّا ليلة الحادي عشر . . فكم تراها كانت المسافة بين جسد سيّد الشهداء والموضع

الذي كانت فيه العلياء المكرّمة « زينب » ؟! رغم قِصَر هذه المسافة كان لا بدّ أن تبيت هذه الأجساد بلا نوائح ! ولكنْ . . لا ، لم تبق الأجساد بغير نوائح . البارحة ـ طبقاً للروايات ـ حضرتْ نسوة الجنّ للنياحة . . جئن من الفَلَوات لِيَنُحْنَ عليهم .

من المقرّر [إذَنْ] ألاّ يكون اليوم يوم التجهيز . مُطَرَّحة هنا مئة جسد وجسدان ـ ما عدا جسد الإمام : ثلاثون من أهل البيت ، واثنان وسبعون من الشهداء .

اليوم . . لم يكن سيّد الساجدين ـ في الحالة التي أخذوه عليها ـ قد عايَنَ القتلىٰ [مُصَرَّعين] . لكنّه لمّا رآهم ـ وقت مرّوا به علىٰ مكان المصرع ـ أصابه ما لم يُصِبْه في أيّ وقت آخر . .

ألاَ ترىٰ إلىٰ علياء المنزلة السيّدة « زينب » ؟ ! إنّها امرأة . . والإمام السجّاد رجل . جاء في الرواية عن الإمام عليّ بن الحسين [عليه السلام] قوله : [لمّا] أصابنا بالطفّ ما أصابنا ، وقُتل أبي (عليه السلام) وقُتل من كان معه من ولده واخوته وسائر اهله . . وحُمِلت حرمه ونساؤه علىٰ الأقتاب يراد بنا الكوفة ، فجعلت أنظر اليهم صرعىٰ لم يواروا . . فيعظم ذلك في صدري ، ويشتدّ لِما أرىٰ منهم قلقي . . فكادت نفسي تخرج . وتبيّنتْ ذلك منّي عمّتي زينب بنت عليّ الكبرىٰ ، فقالت : ما لي أراك تجود بنفسك يا بقيّة جدّي وأبي وإخوتي ؟ ! فقلت : وكيف لا أجزع وأهلع وقد أرىٰ سيّدي واخوتي وعمومتي وولد عمّي وأهلي مصرّعين بدمائهم ، مرمّلين بالعراء ، مُسَلَّبين لا يُكفّنون ولا يُوارَون ، ولا يَعْرج عليهم أحد ، ولا يقربهم بشر . . كأنهم أهل بيت من الدَّيْلم والخَزَر » !

راحت العلياء « زينب » تسلّي هذا الإمام المظلوم . . فقالت : « لا يجزعنّك ما ترىٰ . . » . وشرعت تتلو عليه حديث رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) [بشأن الأناس الذين أخذ الله ميثاقهم . . لِيُواروا هذه الجسوم المضرَّجة ، وينصبوا مَعْلَماً لقبر سيّد الشهداء (عليه السلام) لا يدرس أثره علىٰ

مرور الزمان . . .] .

***

أجَلْ . . ينبغي أنّ تظلّ هـذه الأجساد اليـوم . أعمـال حجّهم . . لم تكتمل بعد ! إنّهم يبيتون ثلاث ليالٍ في « مِنىٰ » . التجهيز يكون غداً ـ إنْ شاء الله .

الـذي أريد أن أفعله اليـوم هـو أن أسلّم علىٰ بعض شهـداء كـربـلاء ، وأحادثهم بعض الحديث . . أتحدّث مع شهداء أهل البيت علىٰ حِـدة ، ومع الأصحاب علىٰ انفراد .

أسلّم أولاً علىٰ جليل من أصحابه . إنّه « أبو ثُمامة الصّائديّ » . . الذي لمّا هوىٰ قال له الإمام : « السلام عليك يا أبا ثمامة ، ورحمة الله وبركاته » .

وهذا كلامي معه :

يا أبا ثمامة ! كان اليوم الرابع من المحرّم عندما كان سيّد الشهداء (سلام الله عليـه وحـده في الخيمـة . وحين حـلّ عسكـر عمـر بـن سعـد فـي « كربلاء ») . . قال [ابن سعد] هذا الكلب الطاعن : ليحملّ أحدكم رسالتي إلىٰ الحسين . ولم يستجب لـه كلّ من دعـاه إلىٰ حمل الـرسالـة . . معتـذراً بقـوله : أنـا كتبت له كتـاباً [بـالقدوم إلىٰ الكـوفة] . . فـأين أذهب ؟ ! إني لاستحيي منه [أن آتيه] . وقال [شقيّ] ملعون[1] : أنـا أذهب إليه ! فحمّله ابن سعد رسالته .

ركب . . أو أقبل راجلاً ، حتىٰ اقترب من الخيام . فلمّا رآه أبو ثمـامة [وهو يعرف أنّ هذا شرّ أهل الأرض وأجرؤهم علىٰ سفك الدماء] قال له : ضع سيفـك فقال ذلـك الملعون : لن أفصـل سيفي عن حمائله ! عنـدها قـال أبـو ثمـامة : فـاني آخذ بقـائم سيفـك ثمّ تتكلّم مـع الإمـام . ولكنّ الملعـون لم يوافق . . فانصرف راجعاً .

---

(١) هو كثير بن عبد الله الشعبيّ .

أريد أن أقول : يا أبا ثمامة ! لم يكن في مقدورك أن ترىٰ [هذا الشقيّ يكلّم الإمام ومعه سيفه] . . فأين أنت إذَنْ لمّـا جاء سِنـان بن أَنَس عند رأس الإمام ، ومعه سيف ، ورمح ، وقوس وسهام . . وأعملَ أسلحته الثلاث هـذه كلّها ؟ !

أسلّم علىٰ « الحرّ » . واعلموا أنّ الدافع الذي جعله يهتدي ويَقْلب حالته [رأساً على عقب] هو : الاستغاثة الأولىٰ التي استغاث بها الإمام حينما كـان أصحابه ما يزالون [معه] . لم يكـد الحرّ يسمـع هذا الصـوت . . حتىٰ قال لعمّه ـ وكان عمّه معه : أما تنظر إلىٰ الحسين كيف يستغيث ؟ !

أيّها « الحرّ » . . سمعتَ استغاثته في هذه الحالـة ، فَجُدْتَ بـالنفس . ولو سمعتَ استغاثته إذ وقع في [وسط] الميدان . . فما كنتَ صانعا ؟ !

« سعيد بن عبد الله » . . أقبل ، وقال للإمام : « . . يا بن رسول الله ! هؤلاء القوم قد آقتربوا منك » ، ولا طاقة لي علىٰ رؤيتهم [يقتربون] . . فأْذَنْ لي أُقْتل [بين يَدَيْك] .

يـا « سعيد بن عبـد الله » ! لم تكن لك طـاقة علىٰ رؤيـة جيش الخصم يقترب من الإمام . . فأين أنت لترىٰ الجيش قد اقتحم الخيام ؟ !

* * *

وَلَديّ خطابات لأهل البيت . . في هذا الموضع من المخاطبة .

الأوّل . . مـع الشهيد الـذي تنكسر لـه القلوب ، أعني : « **القاسم بن الحسن** » .

عندما جاء إلىٰ الميدان . . ارتجز . وكان من رجزه :

هذا حُسَيْنٌ . . كالأسيرِ آلمُرْتَهَنْ !

يـا مولىٰ ! . . رأيت عمّـك كالأسير ! ولكن . . لا أدري كيف تكـون حالتك إذا رأيت عمّك وقد بات أسير الرمح ، أسير دار يزيـد الرجس ، أسيـر دمشق ، أسير دار ابن زيد ؟ !

أسلّم على « عليّ الأكبر » . . الذي قال في رَجَزه لمّا ارتجز :

واللهِ ! لا يحكمُ فينا ٱبنُ الدّعِيّ !

أقول : « يا عليّ بن الحسين » ! أين أنت من مجلس ابن زياد . . هذا الدّعيّ الذي كان يحكم ؟ ! لقد وضع الرأس المقطوع بين يديه ، وأراد [أيضاً] أن يقتل أخاك في مجلسه هذا . . وأراد أن يقتل [كذلك] عمّتك ؟ !

* * *

لديّ خطاب للشهداء . . فأقول :

السلام عليكم يا أنصار الله ، وأنصار رسوله ، وأنصار أمير المؤمنين !

أيّها الشهداء ! . . إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) قد حماكم جميعاً من عدّة أمور :

عندما كان كلّ منكم يُحْتَضَر . . كان يحضركم ؛ حتىٰ لا يصيبكم مزيد من الجراحات . . فقد ورَدَ في الحديث أنّ : لا تضعْ يَدَك علىٰ المحتضر ؛ فانّ وَضْعَ اليد عليه [يؤذيه] كما لو كانت سيفاً [يضربه] . لكنّ أترىٰ بقي موضع [سالم] ليضربه السيف ؟ !

لقد حماكم من أن تُقْطع منكم الرؤوس .

حماكم من أن تُسلبوا ثيابكم .

حماكم من أن تتوزّع الفَلَوات أجسادكم .

حماكم من أنْ تطأكم حوافر الخيول .

أيّها الشهداء . . هلمّوا الآن ـ إذنْ ـ تعاينوا ما حدث له هو !

لقد حماكم الإمام كلّ هذه الحمايات . ورافقتكم حمايته في بعضها حتىٰ الأخير . . كأنْ يُحْتَضر أحدكم فلا يدع أحداً يؤذيه . أمّا قطع الرؤوس . . فانّ رأس أحد من الشهداء لم يُقْطع ـ ما دام الإمام علىٰ قيد الحياة . نعم . . بعد ارتحال سيّد الشهداء . . قُطِعت هذه الرؤوس ، إمّا عصر أمس ، أو صبح

اليوم .

كان يسعىٰ لجمع القتلىٰ [في مـوضع واحـد] . . « **كان يَضَـعُ القتلىٰ بعضَهم علىٰ بعض** » .

مصرعهم . . غدا كمنصّة عالية ؛ إرادةً منه ألاّ تُفْصَل [في هذه الحالة] منهم الرؤوس ، ولا تطأهم الخيول .

علىٰ أيّ حال . . حَدَث صباح اليوم أو أمس أنّ جاء مئة شخص أو أقلّ ـ وكلٌّ منهم يحمل في يده سِكّيناً ـ . . ودخلوا المصرع !

كلّ مصيبة أذكرها . . مصيبة فظيعة ، وأرىٰ أنّ هناك مـا هو أفجـع منها وأفظع . لكنّ . . أتراها قليلة مصيبة فصل رؤوس الشهداء؟ ! لكنّ ثمّة ما هو أفجع : هذه الرؤوس المقدّسة لمّا فصلوها . . جعلوها في مكـان ، ثمّ راحوا يتقاسمون الرؤوس ، ويحملونها علىٰ رؤوس الرماح !

ألاّ لَعْنة الله على القوم الظالمين . وسيعلم الذين ظلموا آلَ محمّدٍ حقّهم أيّ مُنْقَلَب ينقلبون .

إنّا لله ، وإنّا إليه راجعون .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثاني عشر الإمام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سُبْحانكَ يا إلهي وبحمدك . تعاليتَ في عزّ جلالك عن مُشابهة الأنام . وتقدّستَ في عزّ كمالك عن مَطارحِ الأفهام . تَحيّرتْ في أشعّة أنوار جمالك أوهام المتوهِّمين . وتقاصَرَتْ عن إدراك كُنْهِ كمالك أفكار المتفكرين . واضمحلّت في لوامعِ بَرْقِ شوق لقائك ، وتَضعْضَعتْ في كمال أحَديّتك وجمال صَمَديّتك قلوبُ العارفين .

نَحْمَدُك حمدَ الشاكرين . ونؤمن بك إيمانَ المخلصين .

ونصلّي ونسلّم علىٰ محمّد ، أفضل الخلائق أجمعين ، وعلىٰ عترته الأطائب المطهَّرين ، والسادة المُنْتَجَبين . . عليهم أفضلُ صلاةِ المُصلِّين ، صلاةً دائمة بدوام السماواتِ والأرضين .

وردَ في الأحاديث المعتبرة ما نصّه ـ أو ما معناه :

« مَنْ غَسّل مؤمناً غَسَله الله من ذنوبه . . كيومِ وَلَدَتْه أمّه » .

في أيّامنا هذه . . أُلغي هذا المعنىٰ ؛ إذ صار الغسل بأجر . ومن غير المعلوم أن يكون للغاسل « قَصْد القُرْبة » . في حين كان أحبّاء الميت ـ فيما سلف ـ هم الذين يتولّون تغسيله . ونحن نقرأ في الدعاء : « يغسّلني صالح

جيرَتي » .

علىٰ أيّ حال . . ما يدريني ، فلَعلّ غالب الأموات ـ في زمـاننا هـذا ـ يذهبون بلا غسل . . إذ المظنون خُلُوّ الغسل من قصد القربة . ومن المقطوع به أن الغسل بالأجر باطل .

و « مَن كفّن مؤمناً . . كان كمن ضمن كسوته إلىٰ يوم القيامة » .

و « مَنِ آحتفر لمسلم قبراً محتسباً [حرّمـه الله علىٰ النار] وبـوّأه بيتاً في الجنّة » .

ومَنْ شيّع جنازة مؤمن . . « فانّ الميّت إذا أنزلوه نُودي : [ألاّ وإنّ أوّل حِبائك : الجنّة] ، ألاَ وإنّ أوّل حِباء مَنْ تَبِعك : المغفرة » .

و « مَن أخذ بقائمة [من قوائم جنازة الميّت] غفر الله له خمساً وعشرين كبيرة . وإذا ربّع [أي : أخذ من أربع جوانبها] خرج من الذنوب » .

و « مَنْ حثا [التراب] علىٰ ميّت . . أعطاه الله بكلّ ذرّة حسنة » .

ومن سَلّىٰ يتيم ميّت . . صلّىٰ الله علىٰ روحه .

ومن زار أهل القبور ، وقرأ آية الكرسي ، وأهدىٰ ثواب ما قرأ إلىٰ أرواح اموات المقبرة . . عليك الرجوع إلىٰ المصادر[1] .

هذا كلّه . . إذا كان [الميت] مُسلماً . أمّا إذا كـان مؤمناً كـاملاً . . فأجره ولا ريب أعلىٰ .

إذا كان عالماً . . فانّ الأجر يزداد .

إذا كان غريباً . . فالأجر في تزايد .

---

(١) يُنظر مثلا كتاب الوسائل ٢ : ٨٨١ ؛ ففيه جملة من الأحاديث ، كقـول الإمام محمـد الباقر (عليه السلام) : مَن زار قبر أخيه المؤمن ، ووضع يده عليه ، وقرأ « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » سبع مرّات . . أمن من الفزع الأكبر » .

إذا كان مهتوك الحرمة . . فعليك أن تقدّر كم يزداد عندها [الأجر] .

إذا كان شهيداً . . فواضح ما يكون له من الأجر .

أمّا إذا كان هذا الشهيد إمامَ المتّقين ، سيّد الشهداء . . !

هـذا « الميت » العظيم . . ظـلّ ثلاثـة أيّـام علىٰ الأرض . أتـرىٰ . . يمكننا أن نؤخّر تجهيزه اليوم ؟ !

اليوم هو ثالث الأيّام لِهُويّ الأجساد . لكنّ هذه الأجساد المطروحة التي نريد تجهيزها . . عِدّتُها : مئة وَاثنان !

أحـدهـا [جسـد] الحسين بن عليّ بن أبي طـالب . وواحـد لعلّي بن الحسين . وآخر للعبّاس بن عليّ [بن أبي طالب] .

« وَليّ » [الميّت] الذي ينبغي اليوم أن يحضر . . لا بدّ أن يحضر !

من الأصـول أن يُنـادىٰ علىٰ الميّت . و[لكنّ] مـا لهؤلاء الشهـداء مَن ينادي عليهم . ابنة عليّ بن أبي طالب ، لمّا أرادت الارتحال عنهم . . لم تَرَ أحداً لينادي عليهم عندها قالت : « أمَا فيكم مُسْلم . . » ؟ !

اليـوم نـريـد ـ في عـالم المعنىٰ والحقيقـة ـ أن ننـادي نيـابـة عن تلكم المكرمّة . . لتجهيز هذه النُعُوش . نريد أنْ نعلن ، نيابة عن ابنة عليّ بن أبي طالب . . لكن بعبارات ابنة « أبي ذَرّ » .

مات أبو ذرّ في صحراء « الرَّبَذة » .

كان وحده ، وما معه إلاّ آبنته . . يبحثان هنا وهناك في تلكم الصحراء ، لعلّهما يجدان شيئاً من العشب يأكلانه !

مريضاً كان . . أبو ذرّ .

بدتْ عليه أمـارات الموت . . فصنـع له وسـادة من الرّمـل . قالت لـه ابنته : يا أبتاه . . ما عساني أصنع بك ، في هذه الصحراء ؟ ! فقال : أخبرني حبيبي رسول الله أنّ جماعـة يقبلون من جهة العـراق . . يقومـون بتجهيزي .

اقصدي جانب الطريق ، وأخبريهم يأتوا لتجهيزي .

تمدّد أبو ذرّ مستقبلاً القبلة . على فراش من تراب الأرض . . وفاضت روحه . غطّته ابنته بعباءة ، ثمّ مضت إلى حيث قال لها أبوها . . وجلستْ هناك . وبعد قليل . . لاحت لها قافلة مقبلة . كان فيها ابن مسعود ، وفيها مالك الأشتر . كان في القافلة عدد من الصّحابة .

نادت ابنةُ أبي ذرّ : يا عبادَ الله المسلمين ! هذا أبو ذرّ صاحب رسول بالله (صلّىٰ الله عليه وآله) تُوفّي في هذه الغُرْبة . . وما معي من يعينني عليه لقد مات منذ ساعة . .

سمع أهل القافلة هذا النداء . . فترجّلوا ، وجاءوا بأجمعهم إلىٰ أبي ذرّ . تنازعوا بينهم في « كفن » أبي ذرّ . . كلّ يقول : عَلَيّ كفنه !

أمّا اليوم . . فإنّي أنادي :

يا عبادَ الله المسلمين ! هذا الحسين بن عليّ ! هذا عليّ بن الحسين هذا العبّاس بن عليّ . . تُوُفّوا في هذه الغُرْبة !

أمّا التي نادي من قِبَلها لتجهيز الأجساد . . فانّها مشغولة اليوم ـ الثاني عشر ـ بفاجعة أخرىٰ شغلتها عن هذه ! لقد عرضتْ لها مصيبة أكبر :

الآن . . أو في ساعة أخرىٰ : تدخل مجلس ابن زياد !

مصيبة اليوم . . أنْسَت العلياءَ المكرَّمة « زينب » مصيبة مصارع الأجساد المطروحة علىٰ الرمضاء بلا كفن ولا دفن !

بـالله عليكم . . أيّ الفاجعتين أمضىٰ وَقْعاً : فاجعة بقاء الجسد في الميدان بعد القتال والقتل . . أمّ فاجعة الإتيان بالرأس إلىٰ مجلس العدوّ ؟ !

العلياء المكرّمة مشغولة [الآن] بمصيبة . لعلّها الآن في الطريق لينزلوها إلىٰ دار ابن زياد !

المصيبة الأخرىٰ . . أنّ أحد الملعونين يدخل مجلس ابن زياد ، وهو

يترنّم بقوله :

إمْـلأْ رِكـابـي فـضّـةً أو ذَهَـبـاً

[إنّـي قـتـلـتُ الـسـيّـدَ الـمُـحَـجَّـبـا]

[قتلتُ خيرَ الناس أمّاً وأبا]

إنّها لمصيبة أخرىٰ من المصائب !

وأمضّ من كلّ هاتيك المصائب أنّهم وضعوا الرأس في طبق ، وأتـوا به قدّام ابن زياد !

وأمضّ منها . . العصا التي كانت في يده !

وأفجع منها . . أنّه ما أن وضعـوا الرأس [المقـدّس] أمامـه . . حتّىٰ شَرَع يضحك !

أجل . . هذا [كلّه] قد وقع . وانّما ذكرتُه ـ على سبيل الاشـارة ـ لأنّه من وقائع اليوم . . وإلاّ فانّ لدينا شيء آخر. علينـا أن نَمضي اليوم إلىٰ أرض « كربلاء » . لقد اجتمعنا للتجهيز . لا تَقُلْ عن هذه الأجساد الطاهرة التي ظلّت ثلاثة أيّام علىٰ حالها : إنّها لم تُجَهَّـز ! التجهيز الـذي جرىٰ لهـا . . لم يَجْرِ لأحد .

علىٰ وقـوع الواقعـة . . انسلخ مـا يقـارب ألفـاً ومئتين وسبعـاً وثـلاثين سنـة[1] . . وما يـزال الناس ـ حتّىٰ الآن ـ مشغـولين بتجهيز سيّـد الشهـداء . ترىٰ . . لأيّ نبيّ أووصيّ نبي قد جرىٰ مثل هذا ؟ !

قدِّروا الله حقّ قدره . . وانظروا كيف يعوِّض ، وكيف يكافىء !

كان لهذه الأجساد عدّة تجهيزات : تجهيز إلهيّ ، وتجهيز نبويّ ، وتجهيز ملائكيّ ، وتجهيز حُسَينيّ ـ أيّ : ان الحسين قد جهّز نفسه بنفسه ، وتجهيز من

---

(١) يدلّ هذا التأريخ علىٰ أنّ الشيخ التُّسْتَريّ (قدّس الله روحه) قد ألقىٰ هذه الأحاديث في محرّم سنة (١٢٩٨هـ) . . أي قبل وفاته بخمس سنين .

أهل البيت . . وتجهيز مركَّب من كلّ المخلوقات بعضهم مع بعض . هذه التجهيزات كلها قد حَدَثت .

* * *

أمّا التجهيز الإلهيّ . . فانّ ربّ العاليمن قد كفّن هذا البدن بنورٍ ساتر . فكان هذا النور ـ حتىٰ لو كان هو [عليه السلام] عارياً ـ ستراً له . حتّىٰ أنّ الرجل الأسَديّ[٢] الذي شاهده . . قال : رأيت بين الأجساد جسداً يتلألأ كالشمس .

وجعل[الله تعالىٰ] نوراً للرأس الطاهر . قال زيد بن أرقم ذلك المسلوب السعادة : كنت في داري إذ رأيت نوراً قد دخل من الكوّة : لقد كانوا [في الطريق] يمرّون حاملين رأس سيّد الشهداء .

ولقد صلّىٰ عليه ربّ العالمين . الصلاة الإلهيّة . . هي هذه الصلاة التي تقولونها دائماً : « **صلّىٰ الله عليك . . يا أبا عبد الله** » ! وأكثر من هذا . . أنّه جعل صلاته علىٰ الباكين علىٰ الإمام : « **ألاّ . . وصلّىٰ الله علىٰ الباكين علىٰ الحسين (عليه السلام)** » .

وكان الله [تعالىٰ] هو الذي قبض روح سيّد الشهداء . . « **تولّىٰ الله قبض أرواحهم بيده** » .

* * *

أمّا التجهيز النبويّ . . فقد أنجز النبيّ [صلّىٰ الله عليه وآله] جزءً منه ، حينما كان يشيّع هذا النعش باستمرار . . حتىٰ يوم الأربعين . ومن أجزاء التجهيز : حفر القبر . . فقد حفر النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) بنفسه قبر الإمام الحسين . جاء بنو أسد ، في مثل هذا اليوم [للدفن] . . كما جاء السيّد السجّاد بالخفاء . لكنهم لم يكادوا يضربون الأرض بالمسحاة قليلاً . . حتىٰ وجدوا قبراً محفوراً . إنّه هو القبر الذي كان النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) قد

---

(٢) الأسَديّ : نسبةً إلىٰ « بني أسَد » . . القبيلة العربيّة المعروفة .

حفره . كان قال لأمّ سَلَمة : كنتُ أحفر قبراً للحسين !

ومن التجهيز النبويّ . . ما عبّر عنه بقول : « . . ما زلتُ ألتقط دماءهم » . أي كان يجمعها .

* * *

أمّا تجهيز الملائكة نعشَ سيّد الشهداء . . فانّهم حملوا جسده ـ لدىٰ استشهاده ـ إلىٰ السماء . . إلىٰ حيث « صورة » عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] في السماء الخامسة ، وعادوا به علىٰ الفور . أمّا الحكمة من وراء هذا . . فلست أعرفها ولكنّهم جهّزوه بعروجهم إلىٰ السماء ، وباعادته إلىٰ أرض « كربلاء » .

وقد ورد في الحديث أنّ الملائكة ـ في عالم المعنىٰ ـ جاءوا بماء من عَيْن « التَّسْنيم » . . وغسلوا به الأجساد ، ثمّ كفّنوها .

* * *

أمّا التجهيز[الذي قام به] سيّد الشهداء نفسه . . فانّه [عليه السلام]كان قد أعدّ قبره ، وهيّأ كفنه !

قال عن القبر . . لمّا خرج [من مكّة] قاصداً « كربلاء » : أريد أن أمضي إلىٰ حيث قبري !

وأمّا الكفن . . فانّه قد كفّن نفسه بنفسه . ولكنّ . . ما الفائدة ؟ ! ما تركوه عليه !

ويعبّر عن هذا المعنىٰ قول الإمام : « يا أختاه . . إيتيني بثوبٍ عتيق » . أي : ليكون كفناً لي . وأراد لهذا الثوب أن يكون « عتيقاً لا يُرْغَب فيه » !

ثمّ خرّق الإمام ثيابه قطعة قطعة . . وتكفّن [بهذه الثياب المخرَّقة] !

وهو نفسه قد غسّل نفسه . . لا غسلاً بالسِّدْر ، ولا بالكافور ؛ غسّل نفسه مرّتين . . بالدّم ! قال : بهذه الدماء . . أغتسل !

أحد الغسلين . . كان بالدم الذي شخب من قلبه المبارك ؛ فانّه وضع

كفَّيه تحت الدم . . حتّىٰ آمتلأتا دماً . كان هذا دم القلب (وهو مـا يُعَبَّر عنـه بـ « المهجـة ») الـذي تـرتبط بـه الحيـاة . ثمّ خضّب بـه رأسـه ، ووجهـه ، ومحاسنه . . قائلاً : « **هكذا ألقىٰ الله وأنا مُخَضَّب بدمي** » .

ولو أنّ أحداً تجرّأ علىٰ افتراض أنّ هذا الدمّ مثل سائـر الدمـاء . . فانّ لديّ دليلاً علىٰ أنّ هذا الدم لا صلة له بالدماء الأخـرىٰ ؛ إذ كيف يكون الـدم الذي جعله أحد الملائكة في قارورة من الزُّمُرّد وحمله . . دماً كسائر الدماء ؟ !

« **أشهد أنّ دَمَك قد سَكَن في الخُلْد** » .

وقد ورد عن النبيّ . . في دماء الشهداء قوله : « زَمِّلوهـم[1] بدمـائهم ؛ فاللّون لون الدّم ، والرِّيح ريح المسك » .

[أَجَلْ] . . هذا تجهيز سيّد الشهداء لنفسه .

* * *

أمّا تجهيزه من أهل بيته . .

فانّهم كفّنوا بدنه . . حينما أَلْقَوا بأنفسهم عليه !

غسّلوه بدموعهم الجارية . . علىٰ جسده !

شيّعوا نعشه . . من « كربلاء » إلىٰ الكوفة ، ومن الكوفة إلىٰ الشام .

* * *

وسائر المخلوقات . . كان منهم له تجهيز :

جاءت وحوش الصحراء . جاءت الوحوش والطيور لتجهيزه .

والريح [أيضاً] جهّزته . . بما سَفَتْ عليه من الرّمل والغُبار .

* * *

أمّا تجهيز « بني أَسَد » . . فانّهم في مثل هذا اليـوم قد جـاءوا . كانـوا

---

(١) زمّلوهم : دثّروهم .

علىٰ مسافة من « كربلاء » . . حيث تقع أراضيهم ومزارعهم .

ما أن حلّ اليوم الثالث [علىٰ المذبحة] . . حتىٰ جاءوا ، تحدوهم الغيرة . وهناك من يقول : إنّ نساءهم قد أثرنَ فيهم الحميّة ، إذ قُلْن لهم : إذا كنتم تخافون ابن زياد . . فنحن ذاهبات لدفنهم !

أجَلْ . . كاليوم جاءوا . وكان فيهم من يرصد الطريق ؛ خشية أن يَدْهمهم من الكوفة أحد أتباع ابن زياد .

وبينما هم كذلك . . وإذا بفارس يُقبل من جهة الكوفة[1] . . . إلىٰ آخر الحديث ، فعليك الرجوع إلىٰ المصادر .

إنّا لله . . وإنّا إليه راجعون . .

---

(١) هذا الفارس . . كان الإمام السجّاد زين العابدين (عليه السلام) قد جاء خُفْية ، لدفن أجساد الشهداء الطاهرة .



ثالث عشر الأيّام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سُبْحانك اللهمّ وبحمـدك ، يا ملك يـا قُدّوس يـا سلام ، يـا ذا الجلال والاكرام . لا أحصي ثناءً عليك . . أنت كما أثنيت علىٰ نفسك .

يا متفرِّداً بالعظمة والجلال . يا كبير يا متعال . لك العلوُّ الأعلىٰ فوق كلّ عال ، والجلال الأمجد فوق كلّ جلال نحمدك علىٰ جميع الأحوال ، ونشكرك بالغدوّ والآصال ، ونستهديك[1] لأفضل الأعمال .

ونصلّي ونسلّم علىٰ محمدٍ نبيّك (صلّىٰ الله عليه وآله) : نبيّ الرحمة ، وإمام الأئمة . . المنتجب من طينة الكرم ، وسلالة المجـد الأقدم ، ومَغـرس [السّناء] المُغْرهق ، وفرع العلاء المثمر المورِق . . وعلىٰ أهل بيته مصابيح الظلام .

أسأل الله [تعالىٰ] ألاّ تكون القلوب [منّا] كالتي قال عنها : « **ثمّ قَسَتْ قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة** » .

وأرجـو ألاّ تكـون هـذه القلوب كمـا قـال [تعـالىٰ] : « خَتَمَ الله علىٰ قلوبهم » ـ أي ختم الله عليها بما اجتـرحت من ذنوب . . فغـدت علىٰ العين

(١) في الأصل : ونشهد بك . . وهو لا يلائم السياق .

والأذن غشاوة ، لا تتأثر بالخوف من الله .

ولو بلغ الأمر [بنا] إلىٰ هذا الحدّ . . فلا مناص إذن .

عسىٰ ألّا تكون قلوبنا كـذلك . وأملي أن يكـون لهـذه الـدقـائق ـ التي تستمعون فيها هنا إلىٰ الموعظة ـ تأثير . . قيل أن يحلّ بنا ذلك التأثير الذي إذا جاء لا ينفعنا !

لكلّ منا [لا بدّ] ساعة نُوعَظ فيها ونتأثّر . . وحينها لن يكون لتأثرنا هناك من ثمر !

عنـدمـا يجيء ذلـك الـواعظ الـرزين ، الـواعظ العـظيم . . نتنبّـه ونستيقظ . . في وقت لا ينفعنا فيه التنبّه ولا الاستيقاظ ! عسىٰ أن تكون ساعة [الموعظة] هذه الآن بديلاً لنا عن تلكم الساعة ، فتنفعنا .

حين يجيء [ذلـك الواعظ] . . يسلبـك كلّ شيء . أمّـا الآن ـ وأنت جالس هنا ـ فانّ كلّ شيء معك .

أتوسّل اليك ـ وانت جالس هنا ـ وألتمسك ، وأرجـوك أن تصغي لكلمة الوعظ الحقّ . يكفي ألّا تضحك منها في سرّك .

أجل ، الآن . . لديك الاختيار . ووقتما يجيء هذا الـواعظ تمسي غير قـادر علىٰ الحركـة ، ولا قادراً أن تضحـك منـه في قلبـك ، ولا أن تنـدّ عنـه وتتخلّف . هلمّوا ـ إذَنْ ـ نتواعظ .

فمـا الـدليـل علىٰ أنّ قلوبنـا ليست من تلك القلوب ؟! ومن يقـول انّ اسماعنا وأبصارنا ليست داخلة في ضمن « علىٰ سمعهم وأبصارهم غشاوة » ؟ ! وإذ أنت جالس هاهنا فربما يعتري حالتك شيء من التغيير .

يخـال بعضهم ـ لقلة الموعـظة بين النـاس ـ أنّ علىٰ الـواعظ أنْ يكـون قصّاصاً يحكي الحكايات . وبعضهم يتصـوّر أن علىٰ الواعظ أن يتحـدّث عن الآيات المشكلة والموضوعات الفلسفيّة .

اعلموا ـ بادئاً ـ أنّ الموعظة من شأن الله ، فلا تحسبوها هينة يسيرة . .

« يَعِظكم به » . إنها من عمل النبيّ ، ومن عمل أمير المؤمنين . . الـذي كان يؤكّد عليها كثيراً .

الموعظة : جذب الخلق إلى الله . فإذا كنتَ عاصياً تصبح مطيعاً . وإذا كنت مطيعاً تصبح اكثر طاعة . يقـول بعض الذين يفتقـدون طاعـة الله : نحن جيّدون ، فلا نريد مـوعظة . وانّ هـذا لغلط [من القول] . المـوعظة تجعـل الطالح صالحاً . . أو أنه ـ في الأقلّ ـ لا يغدو أكثر سوءً .

إنّ الذي يجترىء علىٰ المعصية ويظلّ يجترىء . . يتقدّم بالتدريج نحو « الكبيـرة » ، ثمّ يمضي تلقاء « الكبيـرة الموبقـة » . . حتىٰ يبلغ به الأمـر ألاّ يتورّع عن قتل الأنبياء والكفر بالله ، كما يقول [تعالىٰ] : ﴿ **ويقتلون الأنبيـاء بغير حقّ ، ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون** ﴾ .

أريد [الآن] أن أذكر بضعـة عبارات في المـوعظة . . أختبـر بها قلبي وقلوبكم .

هــذه المـوعــظة مـركَّبــة من كـلام الله ، وعبــارات من الإمـام الأوّل [أمير المؤمنين] ، ومن كلام الإمام الخاتم الـذي هو حجّـة العصر . أذكـرها متداخلة . . لعلها تؤثر في القلب .

« لا لأمر الله تعقلون ! ولا من أوليائه تسمعون ! « حكمة بالغـة فما تُغْنِ النُّذُر والآياتُ عن قوم لا يؤمنون » .

هـذه موعـظة صاحب الأمـر : « لا لجلال الله تعـظمون ! ولا لشـأن الله تُكْبِرون ! ولا من عظمة الله تسجدون ! ولا لحقوق الله توفون ! ولا من صولة الله تَحْذرون !

« وما الله بغافل عمّا تعملون » .

وحسبنا هذه الآية !

« قُلْ هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون وَلَتَعْلَمُنَّ نبأه بعد حين » .

غافلون عن حظّكم من الخير ، وعمّا قليل تدركون .

« فأين تذهبون ؟ ! وأنّىٰ تؤفكون ؟ ! أمْ أين تُصْرَفون ؟ ! » .

« وإلىٰ أين تتوجهون ؟ ! » .

« بأيّ وجه تلقون ربّكم ؟ ! » .

« بأيّ قدم تقفون ؟ ! بأيّ لسان تعتذرون ؟ ! » .

* * *

ماذا أقول عن الأيّام الالهيّة والسَّطَوات . . التي سنلقاها أمامنا ؟ !

أأقولها مُجْمَلة . . أم مفصّلة ؟ !

إن أمامنا انتقالات !

قدّامنا منازل مَخوفة !

أمامنا منازل !

أمامنا الخروج !

أمامنا الوقوف !

نيران معنويّة أمامنا !

نيران ظاهريّة قدّامنا !

أمامنا سجون !

أمامنا أنوار !

أمامنا ظلمات !

أمامنا الأخذ !

أأعددنا لأمرنا عدّته ؟ !

« أفمن هـذا الحـديث تعجبـون ؟ ! وتضْحكـون ولا تبكـون ؟ ! وأنتم سامدون » ؟ !

هذه مجملات . . أذكر شيئاً من تفصيلاتها :

أحد الانتقالات : انتقال حالتك في ساعة موتك . تتغيّر عندها حالتُك . . إنه « **أوّل يوم من أيّام الآخرة ، وأوّل يوم من أيام الدنيا** » .

وانّ لي في هذا اليوم ثلاثة مخاوف تذيب الكبد ـ إذا صحّ التعبير :

أحدها ـ والعياذ بالله ـ أن ينسلخ عنك إيمانك في يومك الأخير [من أيّام الدنيا] . . فتدخل في أول يوم من أيام الآخرة وأنت بلا ايمان . ولم تبق في اليد حيلة ، فقد قضي الأمر !

الرهبة الأخرىٰ في هذا التبديل : أني لست أدري مقدار ما تراكم عليّ من الذنوب . وانّي لأخشىٰ أن تكون ذنوبي في ذلكم اليوم أثقل منها في أيّ يوم آخر .

الرهبة الثالثة ، هي : ماذا سيكون في قلبي ، في ذلك اليوم الأخير . . أيغلب علىٰ قلبي حبّ الدنيا . أم حبّ الله ورسوله والأئمة . . « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجُكم وعشيرتكم وأموالٌ آقترفتموها وتجارةٌ تَخْشَونَ كَسادَها ومساكنُ ترضَوْنها . . أحبَّ اليكم من اللهِ ورسولهِ وجهادٍ في سبيله . . » .

انظر الآن إلىٰ قلبك : إذا كانت محبّة الله هي الغالبة عليه . . فانها ستظلّ فيه . أمّا إذا كانت الغلبة لمحبّة الدنيا فانك تؤخذ ـ عند الموت ـ وتعبر إلىٰ منزل الخراب . . ويُلقىٰ في القلب العداء لله ـ نعوذ بالله .

أتخاف من هذه الحالات والكيفيّات ؟ !

من تفصيلات هذه المجملات . . مسألة الرّسل الذين يأتونك ويسائلونك . لا أدري كيف ستكون حالتنا معهم ؟ ! وبأيّ هيئة سوف يأتون ؟ ! لا أدري ما يقولون ؟ !

كان النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) جالساً يوماً عند محتضر . وفي وقت الاحتضار . . دارت حماليق عينيه ، واضطرب ، فقال : « **يا رسول الله ، أرىٰ**

أسْوَدَيْن يُقْبلان » !

أتخشىٰ العاقبة ؟ ! لا أدري ما سيكون ! سوف يقال لبعضهم ﴿ لا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون ﴾ .

لا أدري . . أنسمع نحن هذا القول ، أم نسمع ما سوف يقال لبعضهم : ﴿ لا بُشرىٰ يَوْمئذٍ للمُجْرمين ﴾ ؟ !

لا أدري . . أيقال لنا في هذا المنزل الذي وصلنا اليه : بالخير والبركة . . أمْ لا ؟ !

من كان مطمئناً . . فلا يحزن . ولو كان في القلوب مقدار ثقب [ليست عليه غشاوة] . . لكانت واحدة من كلمات الوعظ هذه كافية له .

من مواعظ أمير المؤمنين [عليه السلام] : إنك قلت : « كيف بكم . . . » . . فأقول : لا حيلة في يدي لأعمل شيئاً . . ولكنّ أملي كبير ـ انْ شاء الله ـ أي يجعل ربُّ العالمين (جلّ شأنه) حبّك في قلوبنا ، وهذا الحبّ يجعل الايمان بالله حليفنا ورفيقاً لنا . . لننجو في هذه الانتقالات .

* * *

الوسيلة الاخرىٰ [التي نعدّها] للنجاة فيما نستقبل من المصيبات . . هي محبّتنا لمن جُمعتْ له المصائب والفجائع كلُّها . . أعني : أبا عبد الله الحسين (عليه السلام) .

كلّ ما تتصوّره من مصائب الدنيا . . قد جُمِعتْ لهذا المظلوم في يوم عاشوراء ، وحلّت به .

لو صحبنا معنا المحبّة لـ « صاحب المصيبة الراتبة » ـ صاحب كلّ المصائب : جنساً ونوعاً وشخصاً وصنفاً ـ لكان خلاصاً لمصائبنا .

لكن اليوم موسم مصيبة شخص آخر . وقت مصيبة صاحب مصيبة شارك سيّد الشهداء في تحمّل المصائب . كفؤ سيّد الشهداء أباً وأمّاً . . الشريك الأعظم لسيد الشهداء فى المصيبة ، أعني : العَلِياء « زينب » .

لماذا أقول انها شريك عظيم ؟ ! انّ مصيبتها ـ في المصائب ـ أفجع ! لأنّ مصيبة كربلاء ـ في الحقيقة ـ قد جرت من أوّلها حتىٰ آخرها . . علىٰ العَلْياء « زينب » . إضافة إلىٰ أنّ ما كان تحمّله سيد الشهداء من المصائب قد تحمّلته السيدة « زينب » أيضاً .

كان لسيّد الشهداء سفر . . وكان للعلياء زينب سفر أيضاً

كانت له هجرة . . وكان للعلياء زينب هجرة .

كان لهذا المظلوم [في الطريق] منازل . . وكان لزينب منازل كذلك .

كان له ميدان حرب قاتل فيه . . وكان لزينب ميدانان حرب اثنان .

هذا الغريب كان له جهاد . . والعلياء زينب كان لها أيضاً جهاد .

كان لهذا المظلوم زيارة . . والعلياء زينب كان لها كذلك زيارة .

كان لسيد الشهداء وداع . . وكان للعلياء زينب أيضاً وداع .

سيّد الشهداء كانت له مناسك حجّ . . وكان لهذه المظلومة مناسك حجّ .

لسيد الشهداء كان إحرام . . وهذه المظلومة كان لها إحرام .

كان له طواف . . والعلياء المكرّمة زينب كان لها أيضاً طواف .

كان له سعي . . ولهذه المظلومة كان سعي كذلك .

ولكلّ فقرة من هذه تفصيلات . ولهذا أقول : إنّ مصيبة سيّد الشهداء ما قيلت بعد ! وبعضهم يظنّ أن [الكلام عليها] قد تمّ ، ولا بدّ أنّ ما سوف يقال بعدئذ شيء مكذوب !

الواقع انها لم تكتمل إلىٰ الآن . . فما الحاجة إلىٰ الكذب ؟ !

كلّ فقرة من هذه الفقرات تحتاج إلى عشرة مجالس لبيانها ، وهذا ـ تماماً ـ هو عين الواقع !

أذكر الآن واحداً من أعمال السيدة « زينب » ، مّما يناسب هذه الأيّام :

كان لهذه المظلومة جهاد . . كجهاد سيّد الشهداء !

دخل سيّد الشهداء الميدان . . راكباً فرسه ، وبيده « ذو الفقار » . . بكلّ تلكم الشجاعة ، وبتلكم الصولة ، وبتلك الحملات التي حملها . .

أمّا جهاد العلياء المكرّمة . . فكان في مجلس ابن زياد . امرأة أسيرة . . وقفت في مقابل ابن زياد ، وأهوت على هامته بسيف ، بل بما هو أشد من السيف !

وما اكترث أحد بما كان لها من « قَدْر » . . وما كان لها من « جلالة » !

قدِم الحسين ـ بعزّة ـ إلىٰ الميدان . أمّا العلياء زينب . . ابنة أمير المؤمنين . . ابنة فاطمة . . فقد جاءت بعباءة رثّة ، ودخلت مجلس ابن زياد الدَّعيّ !

هذا نوع من جهادها . ولها نوع من الجهاد . . هو أعلىٰ من كلّ جهاد :

لقد حفظت هذه المكرّمة تسعة أئمة . أوّلهم الإمام سيّد الساجدين الذي حفظت ـ بحفظه ـ باقي الأئمة . . فهي قد صانت تسعة من الأئمّة .

حفظته مرّة في المقتل عندما كان السيّد السجّاد يُحْتَضر ؛ إذ كان في حالة احتضار لمّا أرادوا أن يأخذوه [للرحيل] . . ورأىٰ هذه الأجساد تظلّ [مطروحة علىٰ الرمال] . هو نفسه قد قال : فكادت نفسي تخرج .

لاحظْ كيف دنت منه في هذه الحالة . . امرأة علىٰ جمل بغير وطاء ، وأخذت ـ بحالتها تلك ـ تسلّي الإمام ! انظرْ . . أيّ منزلة هذه ؟ !

هذا حفظ واحد منها للإمام من الموت . قرأت له حديثاً ، حديثاً طويلاً : « لا يجزعنّك ما ترىٰ . . فانّ أناساً . . . يجمعون هذه الأعضاء المتفرّقة ، فيوارونها . . . وينصبون لهذا الطفّ علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء لا يدرس أثره ، ولا يعفو رسمه علىٰ كرور الليالي والأيام . . . هذا حفظ واحد ، وهو اعلىٰ من الجهاد . . إنه الحماية من القتل . امرأة اسيرة بتلكم الحالة . .

حفظت الإمام من القتل !» .

كـانت كلّما أرادت أن تحفظ سيّـد الشهداء من القتـل . . لم تستطع . ولكنّ العليـاء زينب استطاعت الحفظ من القتـل . . في مجلس ملعون كـابن زياد !

انظر . . كيف حفظت وصانت ؟ ! لقد حفظتْ حتىٰ صاحبَ الأمر [عليه السلام] !

حينما كلّم ابنُ زياد الإمامَ السجّاد . . سأل : من هذا الأسير ؟ فقيل له : هذا عليّ بن الحسين . فقال : سمعت أنّ عليّ بن الحسين قتـل . عندهـا لم تدعه غيـرته . . فقـال : كان لي أخ يقـال له : « عليّ بن الحسين » . . قتله الناس ! فقال : بل ، قتله الله ! قال الإمام : « الله يتوفىٰ الأنفسَ حين موتها » ، ولكن الناس هم الذين قتلوه !

قال الملعون : أوَلك جرأة علىٰ جوابي ؟ ! خذوه فاضربوا عنقه !

ماذا تصنع [السيّدة المكرّمة زينب] الآن ؟ ! وكيف تحميه ؟ !

أقبل الجلّاد ، وأخذ سيّد الساجدين . . وانتضىٰ سيفه .

عنـدئذٍ عمـدت العلياء زينب إلىٰ الإمـام ، فـاعتنقتـه . . وقـالت : لن أفارقه !

تغيّرت حالة ابن زياد ـ مع كلّ قسوته وغلظتـه ـ وقال : سبحـان الله ! ما تصنع الرّحِم ؟ ! دعوه !.

وكـان منها [سـلام الله عليها] مـا هو أعلىٰ من حمـاية تسعـة أئمة . نذكره ـ إنّ شاء الله ـ في محلّه .

إنّا لله ، وإنّا إليه . . راجعون



يوم الأربعين

بسم الله الرحمٰن الرحيم

عن العسكريّ (عليه السلام) أنّه قال : علائم المؤمنين خمس :- صلاة إحدىٰ وخمسين ، وزيارة الأربعين ، والتختّم باليمين ، وتعفير الجبين ، والجهر بـ « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

رغم أنّ عدد المؤمنين في الناس قليل ؛ لمتابعة اكثر الناس هوى النفس . . إلّا أنّ هذا القليل له منفعة للآخرين ؛ وذلك في عيادة [هؤلاء الآخرين] المؤمن ، أو زيارته ، أو إعانته .

ولعلّ في المؤمن منفعة للكافرين أيضاً ؛ فالكافر الذي يعين مؤمناً في شيء . . لا يُؤثر فيه يوم القيامة حرّ نار جهنم .

وإذا عاد مؤمن مؤمناً . . فان [ألف][1] مَلَك أو سبعين ألف ملك يأتون لعيادته في قبره كلّ يوم . وإذا أعان علىٰ دفن مؤمن وتكفينه وتشييعه ، فان الخطاب يصل إلىٰ المؤمن الميت في قبره : أوّل ما أهبك من الرحمة أن أغفر لمشيّعيك ؛ لطفاً لك .

---

(١) كلمة (ألف) ساقطة من الأصل ، والصواب ذكرها ، بقرينة « سبعين ألف » بعدها .

والآن . . تعالوا نجهّز ونكفّن أحد المؤمنين ، بل رئيس المؤمنين ، ورأس المؤمنين ! الذي هو « **أبو عبد الله الحسين** » (**عليه السلام**) .

المشهور بين الناس أنّ هذا العظيم ظلّ ثلاثة أيام . . بلا دفن ولكني أقول : إنه ظلّ أربعين يوماً بلياليها . . من دون دفن ! لأن عمدة أعضاء البدن : الرأس . وما لم يدفن الرأس ، لا يتمّ التجهيز .

هنالك أخبار مختلفة حول الرأس [المقدّس] ، لكنّه ـ علىٰ أيّ حال ـ قد أُلحق بالبدن [الطاهر] .

يدلّ بعض الروايات أن الشيعة قد أخْفَوه ، وجاءوا به عند رأس الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ودفنوه . ويدلّ بعضهم أنّه دفن في الشام . وفي بعضها أنّه دفن في مصر ، وله الآن فيها قبّة ومزار .

ويُروىٰ عن الموكّل بـ [حمل] الرأس الأنور [علىٰ الرّمح] قوله : كان الرأس المبارك علىٰ الرمح . . إذ لاح لي فجأة الجمال الفريد لرسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) . . فمال الرأس الأطهر من أعلىٰ الرمح وهبط إلىٰ حضنى رسول الله ، ثمّ غاب .

مهما يكن . . فانّ لـ[يوم]الأربعين خصوصية الزيارة . والسرّ فيه قدوم أهل البيت [في هذا اليوم] ، أو مجيء أول زائر : « جابر بن عبد الله » ، أو دفن الرأس .

علىٰ أيّ حال . . علينا نحن التكفين والتجهيز :

لا يلزم وجود تابوت ؛ لوجود عدّة توابيت : **تابوت الطّسْت الذهبيّ ! تابوت أعلىٰ الرمح ! تابوت الطبق !**

وما من حاجة إلىٰ كفن ؛ لأن الرأس كان محفوفاً بنور ساطع ، ينبعث منه إلى السماء . . كما ذكر الرجل الشاميّ : كنت في الحجرة حين رأيت نوراً ساطعاً . نظرت . . وإذا رأس الحسين !

وكما قال الراهب : رأيت نوراً وسط قافلة الرأس ، فأعطيتُ مبلغاً كبيراً ،

ليكون [الرأس] عندي تلك الليلة .

أجل . . لا يحتاج إلىٰ كفن أيضاً ، ولا إلىٰ حُنُوط ؛ لأنّ هـذا الراهب نفسه قد حنّطه بالمسك والكافور .

الذي بقي . . هو غسله !

أترانا قادرين علىٰ تغسيله بالماء ؟ !

لا أدري . . عن أيّ مصائبه أحكيٰ !

ومع أنّ البدن المبارك قد ظلّ ـ بجراحاته ـ ثلاثة أيام على الأرض ، لكني أظنّ أن مصيبة الرأس أمضىٰ وأفجع :

أأذكر فصل الرأس عن البدن ؟ ! أم أحكي عن جـراحاتـه ؟ ! أم أتكلّم علىٰ عُرْيه ونزع عمامته ؟ !

هذا كلّه مصيبته الظاهريّة . أما المصيبة الباطنية لهذا الرأس ، فهي :

تقديمه هدية لابن سعد ! ومنه إلىٰ ابن زياد ! ومنه إلىٰ الشام !

وأمّا المصيبة الظاهرية ـ الباطنيّة . . !

أأحكي عن وضعه أمام ابن زياد ؟ !

أم رفعه العصا . . ثم وضعها علىٰ شفته المباركة ؟ !

أم أتحدّث عن ضحكته . . التي هي أمضّ المصائب ؟ !

بعد هذا الدفن الظاهريّ . . عسىٰ أن يكون قد دُفن في قلبي . وعسىٰ ألاّ نُحْرَم ـ لذلك ـ من فيوضاته .

والسّلام عليه وعلى آبائه الطيّبين وأبنائه الطاهرين ، ورحمة الله .



الفهرس







